هدى إدريس

طيور الشارع الكبير

رواية

منشورات وليدوف

طيور الشارع الكبير

هدى إدريس

طيور الشارع الكبير

رواية

منشورات وليدوف

الكتاب : طيور الشارع الكبير
المؤلف : هدى إدريس
النوع : رواية

الطبعة الأولى ـ تونس 2010
© جميع الحقوق محفوظة لشركة وليدوف الدولية
WALIDOFF INTERNATIONAL, SUARL ©

التصميم الجمالي :
صورة الغلاف :
الفنان نجا المهداوي ـ هنفلكال
NJA MAHDAOUI - W. HEUWINKEL

تصميم الغلاف : WALIDOFF CONCEPT

ISBN : 978-9973-9996-6-5 . **ك** . **د** . **م** . **ر**

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing .of the publisher

1

فتحت باب غرفتها. ألقت حقيبتها ومعطفها على الأريكة المخمليّة الصغيرة ذات اللون الأحمر العنبيّ. ارتمى جسدها المتعب في أحضان السرير الكبير كأنها لم تره منذ أيام أو منذ سنين...

خمس سنوات مضت ولكنه لم يتغير. خمسة عقود ببردها ومطرها، بزهرها وحرّها. لم يتغير، عدا اختفاء بعض الشعيرات من مقدم رأسه...شعيرات آثرت الانصياع إلى طغيان الزمن...أو ربما آثرت السقوط تضامنا مع محنة أوراق الخريف الذابلة.

ثبّتت عينيها في سقف الغرفة. جسدها النحيف مرهق، مع أنها لم تأت أي جهد استثنائي. يبدو أن حركة الأحاسيس تلتهم طاقة البشر أكثر من حركة الجسد.

عيناها تحاوران سقف الغرفة كما يحاور المرء الحاسوب. تطلب منه كشفا مفصلا عما وثقته الذاكرة من أحداث ومشاعر قبل خمس سنوات خلت. كانت تظن أنها نسيت كل شيء...أن الزمن يمتص المشاعر ويبتلع الذكرى.

ولكن، كيف لنظرة عزلاء أن تخترق أسوار الزمن وتهزم جيوشه المدججة بأسلحة الدمار الشامل؟

كيف للمسة، أو مصافحة أن تنفخ الروح في أحاسيس كفنتها ودفنتها بنفسها في مقبرة النسيان الأبدي؟ هل يعقل أنها لم تمت؟

كيف يعقل هذا، بعد أن حطمت بيديها كل الهدايا وأحرقت كل الصور، وقاطعت كل الأماكن التي جمعتهما يوما، ومزقت كل الثياب التي ارتدتها لمقابلته، وسكبت في حوض الحمام عطرها المحبب لديه، وهجرت كل الأصدقاء المشتركين؟

منذ خمس سنوات وهي تعيش حياة هادئة. ربطت وحلّت علاقات مع غيره. سافرت واستقرت. تزوجت ثم انفصلت. حياة هادئة لا يشوبها تضارب في المشاعر ولا توتر في العلاقات. كل شيء كان واضحا. لا عشق بعده.

هزمها العشق يوما ولم تسمح له بعدها أن يقتحم ثانية مملكة مشاعرها المحصنة. أغلقت قلاعها دون خيول طروادة... حاربت كل الحيل والألاعيب... تسلحت بعقلها... جعلته ربان سفينتها في بحر الحياة الهائج... قائد ثورتها على كل أنواع الاستعباد. نجحت في طمس ذكراه... أو هكذا خيل إليها...

لم تدرك في تلك اللحظة، إن كانت يدها تصافح يده على الطريقة «الإدارية»، أم أنها كانت تعانقها لتستخلص من عرق الشغف القديم عصارة نبيذ اللقاء.

كل شيء توقف في تلك البرهة.. توقف الزمن وتجمد كل شيء حولها.

تجمدت ابتسامة المدير العام سي شريف العطار.. وتجمدت عبارات التعريف والثناء التي كان يقولها لتقديم المدير الفني الجديد ذاكر عبد الملك.

تجمد الهواء وكل الكائنات الميكروسكوبية والذرات متناهية الصغر التي ترقص بمكتبه.

تجمد رؤساء التحرير والصحافيون وكل الموظفين في مجلة « تونس الثقافية ».

حتى عم فرج الساعي، الذي جاء إلى مكتبها ليعلمها بأن سي شريف يدعوها إلى مكتبه، تجمد هو أيضا وصار تمثالا من الشمع، يحمل بيده اليمنى طبقا به ثلاثة فناجين من القهوة السوداء.

يدها في يده وعيناها في عينيه. عطره الرجالي الرفيع يغازل أنفها ثم يلتف حول خصرها، ويحتويها في عناق مجنون.

أليس من الرائع أن نكون قادرين على أن نحسّ ونفكر بحريّة مطلقة؟ حرية لا عنان لها، لأنه لا رقيب على عقولنا ما دام ما نشعر به أو نفكر فيه جنينا يترعرع في أحشائنا.

ما سيكون مصير الإنسان إذا ما اخترع البشر الآلة القادرة على قراءة المشاعر والأفكار؟

كم سيكون الوجود مملا.. قاسيا.. تافها..

كان عزاؤها الوحيد في خضم الطوفان الذي اجتاح غدرا مملكتها الهادئة، يقينها أن المياه المجنونة لن تطفو على السطح.. لأن أكثر ما برعت فيه هو إخفاء مشاعرها التي ما كانت لتخطو خطوة واحدة خارج الزنزانة دون إذن منها.

مع ذلك أصابها شك، هل تفوز هذه المرة بأوسكار أفضل ممثلة لدور برودة الأعصاب ورباطة الجأش، أم أن أداءها غير مقنع هذه المرة؟

خيّل إليها أنها لمحت ارتعاشة خاطفة بعينيه. خيّل إليها أيضا، أن يده احتفظت بيدها أكثر بقليل من الوقت المسموح به لمصافحة عادية. . .

لا تدري إن كان ذلك حقيقيا أم مجرد مزحة باردة من وحي خيالها. .

ثبتت عينيها مجددا بسقف الغرفة. إنه هناك، ينظر إليها بعينين ناعستين وابتسامة ماكرة.

لم يكن وجهه خاضعا للمقاييس الوضعية للوسامة، تلك التي اخترعها البشر ليملؤوا أغلفة المجلات وصفحاتها بكائنات خيالية زوقتها فئران حواسبهم وطمست عيوبها الطبيعية منظومات معلوماتية غريبة. .«الفوتوشوب»، «الدروو»، «الإمباليش» وغيرها. .برمجيات خلقت من العلوم الصحيحة لتلقي بنا إلى عوالم الخطأ والوهم والخداع. لكن شحنة السحر في نظرته تتحدى كل قوانين الجاذبية. .

لم تنتبه إلى ما كان يقوله سي شريف بثرثرته المعتادة. . ثرثرة انتصرت على اضطهادها منذ ثلاث سنوات، بفضل خيالها الثائر.

ذلك الصباح، لم يسرح خيالها ككل مرة، في تلك الصور العائلية التي تتوسط معظمها وحيدته سلمى ولا في عشرات العناوين التي تملأ فراغات مكتبته الضخمة دون أن تنعم بأي فراغ من وقته الثمين.

كانت واحدة من بين المحظوظين القلائل الذين يسمح لهم باستعارة كتبه. عنوان كلّ ثلاثة أو خمسة أيام. لاحظت منذ البداية، حرصه الشديد على استعادة كتبه إذ لا يفوته نقصان أي عنوان لأن ذلك يشوه جمال مكتبته الفتان، على حد تعبيره.

رغبت في أحد الأيام أن تناقش معه موضوعا لإحدى مقالاتها، وجدت له مراجع في بعض عناوين مكتبته. تفطنت عندها أنه لم يطالع منها إلا النزر القليل. لم يعد كثير الشغف بالمطالعة، ولكنه مولع أيما ولع بالتزويق.

لم يسبح فكرها أيضا في تلك اللوحات الزيتية والمائية، التشكيلية منها والتجريدية. كانت كلها لوحات ممضاة من رسامين تونسيين، معظمهم من الشبان، تكاد تغطي كل جدران مكتبه الواسع، بل ويتكئ بعضها على أحد الأركان منتظرا دوره للتعليق.

كانت اللوحات تتغير من حين إلى آخر. تختفي اللوحة لتحل محلها أخرى. أحيانا بعد أسبوع من تعليقها وأخرى بعد شهر أو أكثر. تخال نفسك في معرض للرسم أو رواق للفنون الجميلة. أو حتى في أحد منعطفات «اللوفر» الفرنسي.

ظنت في البداية أن سي شريف من المهووسين بجمع اللوحات، وعظم في نظرها إجلاله للفن وللفنانين.

صفة «فنان» ليست حكرا على المبدع وإنما يتقاسمها مع عشاق الفن. الإبداع لا يصير كذلك إلا بعد أن يعشقه الآخر. المتلقي. تلك العلاقة الجدلية بين النتاج الفني ومتلقيه، تحدد جزءا من قيمة الأول، وربما خلوده في الذاكرة. إذا كان الفنان إلاها لحظة الإبداع، فالمتلقي

إلاه لحظة التقييم. .ألا يجوز حينئذ اعتبار عاشق الفن فنانا؟

اتضح لها بعد أشهر أن اللوحات لا تختفي في سرداب يحتفظ فيه سي شريف بما يعز عليه من الغالي أو النفيس ثم يغلق بابه بمتاريس فولاذية، و إنما يتوسط سي شريف مقابل عمولة محترمة في بيعها لزواره ومعارفه الكثيرين.

معظمنا يميل إلى اعتبار الفنان مخلوقا نورانيا أو نجما من السماء، نرفعه عن بقية البشر وننزهه عن المادة. . ولكن الفنان بشر، وله احتياجات بني آدم مهما كانت بساطتها، وأولها حاجته لأن يعيش. من هذه الزاوية لا يكون سي شريف فنانا، ولكنه البطل المنقذ للفنانين من خطر البطالة والجوع. .«باتمان» أو «سوبرمان» الفن. . إلى حد ما. .

لم تنتبه ذلك الصباح إلى رأسه الذي تغطيه شعيرات حوّل وجهتها قسرا إلى اليسار، ولا ينسى أن يمرر عليها أصابعه القصيرة، بين الفينة والأخرى، خشية كشف سر صلعه الدفين. ترى ما سيكون رد فعله لو خذله مرهم الشعر الدهني «الجال»، وانزلقت تلك الخصلات فاضحة عري رأسه. .من الشعر؟

تجاوز سي شريف عقده السادس بثماني سنوات. احتفظ مع ذلك ببقايا وسامة الشباب. تحب مرحه وروح الدعابة لديه. تقدر تفانيه في دعم المجلة وإنجاح مسيرتها. وأكثر من ذلك، تقدّس فيه تقديره للمثقفين واحترامه لقدراتها المهنية. كيف لها أن تنسى أنه فتح لها

أحضان المجلة على اتساعها، بعد أن أغلق سي صلاح في وجهها جميع الأبواب..

أي طاقة دفعتها لتقفز من فراشها وتقف أمام المرآة الحائطية المثبتة في غرفتها؟ تحسست وجهها. افتعلت ابتسامة عريضة كتلك التي تتقنها موديلات إشهار معجون الأسنان. بعض التجاعيد الرقيقة بدأت تتسلل لتتخذ موطنا في زوايا عينيها. ظلت برهة ساهمة تتفرس في صورتها المنعكسة على المرآة. شعرت فجأة بحاجة ملحة إلى غسل يديها. هل يعقل أن تدنس الفكرة أجسادنا؟

اضطرت إلى ركوب المصعد الكهربائي حتى تصل إلى مكتب سي صلاح، بالطابق الخامس من بناية إدارية ذات ثماني طوابق، كلها على ملكه. عمارة بحي الأعمال في منطقة «مونبليزير» بتونس العاصمة، واحدة من بين عشرات العمارات التي تمتلكها مجموعة شركاته.

قادتها إليه سكرتيرته الخاصة. شابة في الثامنة والعشرين تقريبا، يفوق وزن المساحيق التي تغطي بشرتها، وزن ما جادت به الطبيعة عليها من جمال. فتحت لها الباب قبل أن تنسحب، تاركة خلفها أذيال عطرها الفاخر الثقيل، ونظرة تساؤل ممزوج بغيرة مقنعة، تفشي الكثير عن علاقتها بمؤجرها..

لا تتذكر أنها شاهدت في الخمسة والعشرين سنة التي أمضتها على ظهر البسيطة، مكتبا أكبر وأفخم منه. قاعة شاسعة يغطي كامل أرضيتها رخام أبيض مزوق على جوانبه.

يقابل الداخل جدار من النوافذ البلورية المطلة على شوارع العاصمة ومبانيها، تكسوه طبقتان من الستائر الفخمة.

من الجانب الأيسر للداخل، تحتل الحائط بركنيه، مكتبة عملاقة من الخشب الراقي، مليئة بكتب ذات ألوان داكنة مزوقة بخطوط ذهبية.

تشرف المكتبة على طاولة اجتماعات ضخمة، يتجاوز عدد كراسيها العشرين.

أما الجانب الأيمن، فيحتله مكتب سي صلاح، وهو من الخشب الراقي المزوق بزخارف أنيقة من الورق الذهبي.

عندما دخلت، أشار إليها بيده لتجلس قبالته على أحد الكراسي الوثيرة الأربعة. ظل جالسا على كرسيه الفخم الدوار من الجلد الرفيع اللامع، يتمّ مكالمة هاتفية.

تمايل بكرسيه من اليسار إلى اليمين بصلف ملوك روما في عصر ما قبل الميلاد. لمع ببنصره خاتم ضخم من الذهب الأصفر تتوسطه ياقوتة عملاقة، تحيط بها بضع ماسات.

جلست على يساره قبالة الجدار البلوري. اعتراها ضيق لم تفهم مصدره. تفطنت إلى عينيه الضيقتين ذات الجيوب السفلية تتفحصها فوق نظاراته مذهبتي الإطار. كان يسترق النظرات إليها دون أن يتوقف عن الحديث مع مخاطبه المجهول، لعله خليفة «روكفيلير» أو أحد الأمراء المستثمرين من الخليج. كان يرطن بإنكليزية ركيكة متحدثا عن مشاريع بمئات الملايين من الدينارات واليوروات والدولارات.

بدأت تتململ في مكانها حين فوجئت به يردد بعض التحيات ويقفل الخط.

– لم أكن أعلم أن الأستاذ كامل منصور لديه تحفة بهذا القدر من الرقة والجمال. لهذا كان يخفيك طيلة هذا الوقت. قال، وانطلق في قهقهة دميمة لم تفهم إلى الآن سببها، ثم واصل قائلا :

– لا أكتمك أن «ماتر» منصور، ليس فقط محامي إحدى أهم شركاتي، بل هو أيضا صديق ورفيق درب الدراسة الجامعية. إيه.. قضينا سهرات لا تنسى في باريس.

أغرق مرة أخرى في نفس تلك القهقهة المقرفة، ذكرتها بزمجرة السحرة والأشرار من أمثال «شرشبيل» في أفلام الكرتون.

شعرت برغبة فجئية في الرحيل. لازمت الصمت. حاولت أن ترسم على شفتيها ابتسامة محايدة. أشعل سي صلاح سيجارا ضخما. استلقى بارتياح فرعوني على ظهر كرسيه. واصل الحديث خلف سحب الدخان التي نفثها دون أن يعير أدنى اهتمام لرائحة التبغ الكريهة :

– لا أخفي عنك أنه لما أعلمني كامل بأن ابنته حصلت على الإجازة ثم شهادة الدراسات المعمقة في علوم الصحافة، لم أتأخر لحظة في أن أعرض عليه خدماتي.

لا بد أنك تتساءلين، أي مكان لك في إمبراطوريتي والحال أن معظم استثماراتي في ميدان الصناعة والتجارة والتنمية العقارية.

لك الجواب، لقد قمت في الأسابيع الماضية ببعث مجلة ثقافية ترفيهية، مهمتها الأولى تدعيم استثماراتي

من خلال صفحات الإشهار. لا يخفى عنك باعتبارك صحفية، أن أسعار الإشهار باتت في ارتفاع متزايد. فعوض أن أصرف الملايين لدى الآخرين، قررت أن أنفق أقل منها بكثير في مجلة تكون تابعة لي وفي نفس الوقت سندي الإعلامي وكما يقول المثل «الماء إلي ماشي للسدرة الزيتونة أولى بيه».

بالطبع يبقى الإشهار في الجرائد والمجلات ووسائل الإعلام الأخرى ضروريا للوصول إلى أكبر عدد ممكن من المستهلكين والحرفاء. ولكن إنشاء مجلة خاصة بمنتجاتي تضغط كثيرا على المصاريف مما يرفع في الأرباح.

لا أخفي عنك أنني سرقت الفكرة عن تجربة القنوات الهوائية التي أضحت تغرق العالم السمعي البصري وهي ليست في النهاية سوى ملك لشركات كبرى، معظمها متعددة الجنسيات، بعثتها إلى الوجود لتدعيم استثماراتها المالية بالأساس.

ولا أظن أنك تعارضينني إذا صرحت بأنني أكون بذلك قد ساهمت في إثراء الاقتصاد التونسي، بخلق مواطن شغل جديدة وأكون قد أثريت المشهد الإعلامي والثقافي التونسي بمولود ثقافي جديد.

كما يقول الفرنسيون Jamais deux sans trois. . لا وجود لاثنين دون ثالث، أغرق الملياردير في ضحكة ثالثة لم تشهد في حياتها أكثر دمامة منها. تمنت في تلك اللحظة لو يصيبها صمم وقتي أو يصعق هو ببكم مستديم.

لم تتمالك نفسها، فقالت:

– اعتبار مجلتك إثراء للثقافة يتوقف، في النهاية، على مضمونها. لا أعتقد أنها سترقى إلى هذه الدرجة إن كانت مجرد واجهة لعرض بضائعك.

لا تدري لماذا أسعدها ذلك الامتعاض الذي لمحته بعينيه والذي حاول إخفاءه بابتسامة متملقة قائلا:

– بالطبع ستكون مجلة ثقافية بالأساس، لهذا اخترتك ويسعدني أن تكون ابنة صديقي العزيز كامل رئيسة تحريرها.

رئيسة تحرير مجلة ثقافية..كان العرض غاية في الإغراء. أتمت دراستها منذ ثلاثة أشهر فقط.

مثل هذا العرض يتلقاه الصحافي بعد عشرات السنين من العمل..وقد لا يتلقاه مطلقا.

في المقابل، ستكون المجلة موالية لأحد كبار المستثمرين منضوية تحت لوائه. فأي لغة ستكون لغتها، لغة الجشع لكسب الأوراق المالية والتكالب على تعبئة الخزائن؟ أي المواضيع ستطرح بها، الآداب والفنون، أم البيع والشراء والمضاربات في أسواق البورصة؟ وأي حياد واستقلالية تنشده، تلك التي تتمتع بها الدول العربية تجاه الغرب؟

أغلقت باب الحمام وعادت إلى غرفتها. غمرها بعض الارتياح بعد أن طهرت يديها بصابونها الناعم الخالي من الـ«بي آش». هل أفلحت قطعة صابون صغيرة في إزالة قذارات عمرها أكثر من ثماني سنوات ؟

استرخت مجددا على سريرها. لم تشعر بالجوع ذلك المساء، على غير عادتها. توسدت مخدتها الكبيرة.

أغمضت عينيها ثم فتحتهما. التفتت إلى يسارها. هناك، فوق منضدة الليل، رواية الليلة الماضية، «من لدن الأميرة الراحلة» للكاتبة ذات الأصل التركي «كينيزي مراد». كادت تتمها بالأمس. واحد من بين الكتب التي تعجز عن تركها منذ الصفحات الأولى. لكأنّ مؤلفته علقت تميمة عند كتابته، أو تمتمت ببعض الرقى أثناء نشره، وإلا فكيف تفسر أن الكتاب يسمرك بين طياته ولا يدعك ترحل حتى لقضاء أبسط حاجاتك البشرية.

فتحت الكتاب. حاولت صفحاته الأخيرة إغراءها بالاستسلام للذة المطالعة الليلية. ليلتها لم تشعر برغبة في استطلاع أخبار البطلة، الأميرة المنكوبة، التي هي والدة الكاتبة، وبقية رحلتها المدهشة من تركيا إلى بيروت ثم الهند ثم باريس.

وجدت عينيها تحملقان لاشعوريا في النور المنبعث من الثريا الحمراء المثبتة في سقف الغرفة..

نور يشوبه بعض الاحمرار ترسله الثريا الحمراء. كانت مسترخية على السرير تتأمل. منير في المطبخ يستعد للعشاء. خامرتها فكرة مقال جديد. نهضت وجلست أمام حاسوبها لتكتب. فجأة دفع منير باب الغرفة بقوة ودخل وعلى وجهه علامات حنق مكبوت ثم قال:

– أليس الأحرى بك أن تحضري لي شيئا آكله. لن يهرب الحاسوب ولا الأفكار، أما أنا فقد أفعل. نجلاء، بصراحة، سئمت العشاء بمفردي. ألا يكفي أنني أتغدى في مشرب الكلية أو في مطاعم «الفاست فود» المجاورة. لم لا تكونين مثل تاتا زبيدة. في فترة الخطوبة كنت

أستمتع بطبخها اللذيذ. ظننت أنك طاهية ممتازة مثلها. كانت لا تفارق عمي كامل على مائدة الطعام.

مرّ على زواجهما سنة ونصف. لم يستطع منير أن يتأقلم مع استقلاليتها وحبها للحرية وخصوصا حاجتها إلى الوحدة من حين إلى آخر. يريد أن يشتركا في كل شيء. تعتقد أن الحياة الزوجية تقاسم لبعض الأوقات وليست التهاما لوجود الطرف الآخر. يريدها أن تكون سيدة المجتمع المرموقة التي يستطيع أن يتباهى بها أمام الآخرين، وفي ذات الحين ربة البيت التقليدية المثالية إرضاء لنرجسيته الذكورية. لا تريد أن تكون هذه أو تلك، بل تطمح أن تكون هي نفسها لا مجرد ظل لها.

أجابته باتزان وكأنها تهدئ غضب طفل ثائر:

– عشاؤك جاهز تجده في مكانه المعتاد. ليس عليك سوى تسخينه كالعادة في الفرن. لدي مقال ينبغي أن أحرره. تعلم أنني نادرا ما أتعشى. أقصد على الطريقة التقليدية. في وقت معين وفي ديكور معين. تعلم جيدا موقفي من البروتوكولات الجوفاء. تعلم أيضا أنني طاهية ممتازة عندما أريد وأجد الوقت للطبخ. ثم إن خالتي حليمة طاهية ممتازة. كنت دائم الإطراء على أطباقها. ما الذي تغير الآن؟

– سئمت طهي الخادمات. أطباقها تنقصها شخصيتك. نفسك. رائحة يديك. أريد أن تطبخي لي بيديك. الرجل يحب أن تعتني به زوجته. ثم إن هذا حق من حقوقي كزوج.

هل كان فعلا ينشد في الطعام شخصيتها؟ أم أنه كان ينوي أن يسلق تلك الشخصية في القدر الذي يحويه؟

لم تجبه. اكتفت بصمت بارد. حدجته بنظرة جليدية خاطفة وبدأت تكتب. غادر الغرفة وهو أكثر حنقا.

ما الذي أصابه منذ شهرين أو أكثر؟ هل تعرف على إحداهن وبات ينغص عليها حياتها حتى تضج وتضطر إلى الانفصال؟ أم سقطت الأقنعة لتسفر عن وجه الحقيقة؟

لم تخف عنه شيئا قبل الزواج. ما انفكت صديقتها أسماء تلومها على ما تسميه تهورا. لم يكن لأسماء ماض ثقيل، إذا استثنينا علاقة في أيام الدراسة الثانوية وأخرى في فترة الجامعة، اقتصرت فيهما مع صديقها على التلامس بالأيدي وتبادل بعض القبلات «البريئة». مع ذلك، حرصت على أن تخفي عن زوجها كل شيء. كما حرصت أثناء الخطوبة على إتقان دور«أمك صنافة» ودور «أمي سيسي تكنس...تكنس» حتى تنال رضا ماهر.

ولكنها ليست كأسماء، ترفض أن تكون مثل الكثير من الفتيات، مجرد عناكب تنسج خيوطا من الكذب والنفاق لتغنم بالصيد السمين. إذا بدأت العلاقة بين الطرفين بكذبة فحياتهما في المستقبل ستكون مجرد كذبة، وسيضطر أحدهما وربما كلاهما إلى أن يمضي وجوده في جبة دور سمج مقتطف من أحد الأفلام التجارية الرخيصة.

سمعت فرقعة الباب الخارجي للشقة بعد خروج منير. في تلك الآونة خامرتها فكرة أخرى، قد تصلح موضوعا لمقال جديد أو ربما قرارا لحياة جديدة. نقرت أصابعها

على بعض الحروف. نظرت إلى شاشة الحاسوب. كان العنوان مغريا: الطلاق.

الثريا الحمراء.. هل كان تثبيتها مجددا في غرفة نوم أخرى فكرة صائبة؟

ألم يكن من الأنسب أن تسلمها إلى شقيقها وليد ليتصرف فيها مع بقية أدباش الزواج الأخرى؟

لا تدري لماذا تتبعها في كل مكان؟ أيهما يتمسك بالآخر؟

منير.. منير.. هل كان زواجهما غلطة تاريخية أم أنه خطوة حاسمة كان ينبغي أن تخطوها لتتجاوز الخط الأحمر وتفهم ماذا تريد؟ هل انفصلا لاختلاف طباعهما أم لأن العشق لم يكن من بين المدعوّين في حفل الزفاف؟ أو ربما كان السبب.. إفراطه في الشخير ليلا.. أو حرصه على ترك بصمات كلما قضى حاجاته البشرية.. أو تركه الأعواد القطنية قرب حوض الحمام بعد استعمالها.. لماذا لم يكن يلقي بها في كيس القمامة.. هل يحب أن يرى الآخر صمغ أذنيه عالقا بها.. أم أن تركها هناك من مقومات الرجولة الشرقية؟

لماذا هذه الهواجس الآن؟ ثم لماذا يحوم شبح سي صلاح من جديد حولها؟

لا تدري لماذا قبلت عرض سي صلاح، مع أنها تبينت فيما بعد أنه لم يغمرها بالسعادة. ثم لماذا قبلت دعوته على الغداء، يوم تعرّفها عليه، رغم رغبتها الملحة في العودة إلى المنزل؟

هل كان السبب احترامها لصداقته مع والدها؟ أم كان تنفيذا لتوصية أمها لها بعدم التسرع لما عهدته فيها من اندفاع إلى حد التهور؟

أدركت وهي تتبعه في اتجاه سيارته الضخمة، أن طاقمه الأسود ذي الخيوط الرقيقة البيضاء، من ماركة فرنسية مشهورة للخياطة الرفيعة، عجز عن إخفاء بدانته. عجز أيضا سواد شعره غير الطبيعي، عن إخفاء تقدمه في السن.

كان الغداء عبارة عن كابوس فظيع. لم تكد تبتلع شيئا. كل حركاته تثير اشمئزازها وتقطع شهيتها. في مطعم «اللج الذهبي» الفاخر بقمرت، بالضاحية الشمالية للعاصمة، لم تستمتع بجمال البحر التونسي بزرقته السماوية الصافية، ولا بطيور النورس ترقص رقصة الجوع على الأثير ثم تتزلج على صفحات الأمواج لتتناول غداءها على مائدة الماء المالح.

طفق سي صلاح يتشدق باستثماراته وانجازاته وملايينه وأملاكه وسفراته وملابسه الفخمة. .

أما هي فجعلت تعد الثواني في انتظار أن ينقشع الكابوس. ولكنه ازداد فظاعة، لما بدأت كؤوس الويسكي التي كان يحتسيها دون حساب تعطي مفعولها. انطلق في ثرثرة سمجة، يسرد عليها بخيلاء غزواته العاطفية التي لا تحصى ولا تعد مع بنات حواء الشابات، وما أغدقه عليهن من هدايا وأموال وخدمات جليلة.

«جنكيز خان على حالو» كان هذا ما سيقوله حتما رؤوف، زميلها في العمل، لو أنه قابل سي صلاح، فتلك العبارة التي يستعملها دوما للسخرية من المصابين

بوباء الزهو. عافانا الله. ولكن هل تستقيم المقارنة بين إمبراطور المغول الملقب بملك العالم، الذي اجتاح في القرن السابع للهجرة بلادا وأصقاعا شتى مورثا لسلالته إمبراطورية تمتد من أوكرانيا إلى كوريا... وإمبراطور الآجر ورقائق البطاطا الذي لا يتقن سوى اقتحام الساذجات؟

رجل مثله له أبناء في عمرها، وزوجة فاتنة في عمر أبنائه طلق من أجلها الأولى، ما الذي يجعله يقدم مثل هذا «الوان مان شو» المملّ؟ هل يعمي الثراء صاحبه؟ أم أن البشر المحيطين بذي الجاه يقودونه بطمعهم إلى عمى الروح؟

لم يكن سي صلاح يستدرّ حبها أو عواطفها. كان كأي ذكر خسيس يستدرج طمعها البشري للكسب اليسير. لم يكن يعلم أنه أساء اختيار الفريسة.

وكأن السماء سمعت نداءها، فأرسلت إليه مكالمة من سكرتيرته تذكره بقرب حلول موعد هام بالمكتب مع أحد رجال الأعمال. ربما هو قرش آخر من فصيلته. لم ينس أن يلقي نظرة مطولة على الفاتورة متمعنا في كل تفاصيلها ومتذمرا من غلاء الأسعار. دفع الثمن بواسطة بطاقته البنكية الذهبية. ترك مائتي مليم بقشيشا للنادل.

في طريق العودة أخبرها بأنه يشعر بالوحدة منذ مدة وأنه في حاجة إلى قلب دافئ حنون.

عندما وصلا إلى ضاحية المرسى، طلبت منه التوقف متعللة بقضاء بعض المآرب. كان الشارع فارغا عندما توقفت سيارته. أمسك يدها. ظنت أنه يريد مصافحتها.

وجدت فمه الكريه يدهس شفتيها ولسانه النتن بخليط الأطعمة والويسكي يحاول اقتحام فمها وأصابعه القصيرة المنتفخة تضغط على يدها ثم تحملها عنوة إلى محل ذكورته.

لا تدري كيف وجدت القوة لتتخلص من قبضته وتنزلق من السيارة وكأنها في شريط رخيص من أشرطة الحركة الأمريكية.

نزلت دون أن تلتفت إليه. احتمت بأول تاكسي صادفتها. «إلى باردو..يعيشك»، قالت للسائق ثم انهمكت تمسح آثار غارته المقرفة على ثرى جسدها.

بعد تلك الحادثة ظلت لأسابيع...بل لأشهر، تمرر لا شعوريا أناملها على فمها ثم على يدها في حركة تطهير يائسة لروحها من درن الذكرى.

لم تره مجددا منذ ذلك اليوم المنحوس. كتمت عن والدها التفاصيل. اكتفت بإخباره أن فكرة سي صلاح عن الصحافة لم ترق لها، لأنها مادية تجارية ولا تحترم الرسالة النبيلة للصحافة.

لا بد أنه شك فيما حصل، خصوصا بعد أن تعلل صديقه بمبررات واهية ليقصيه عن إدارة النزاعات القانونية في شركته...لكنه فضل كعادته عدم مواجهتها.

في تلك الفترة قرأت على صفحة وجهه عبارات التوتر والندم..وأرسلت لها عيناه رسائل اعتذار صامت..

لم يحاول سي صلاح الاتصال بها مجددا. أخفق في أن يفرض عليها جسده ولكنه عرف كيف يفرض عليها طيفه اللعين. جعل بداية رحلتها في عالم العمل ملغمة بالأشواك والعراقيل.

اتصل بمدير الصحيفة اليومية، «صوت العرب» التي كانت تعمل بها آنذاك منذ شهر. عرض عليه ميزانية مغرية للإشهار. لم يتردد مدير الجريدة في التخلي عن خدماتها، بعد أسبوعين فقط من لقائها مع الملياردير الأحمق.

كان انتصاره عليها في معركة الثأر لصلفه المرضي، حافزا لتصعيد حرب التحرش بها عن بعد.

لم يتوان عن تهديد مسؤولي الصحف والمجلات التي يتعامل معها بسحب ميزانية الإشهار إن تم قبول ترشحها للعمل.

حرب غير متوازنة القوى. . من الناحية المالية طبعا. مشاريع سي صلاح واستثماراته و. . رشاواه تملأ البلاد. معظم وسائل الإعلام تتعامل معه في خصوص الإشهار. هذا ما كشفه لها سي مصطفى، مدير صحيفة «الفجر». كان من بين من تعرضوا إلى الضغط، لكنه صمد ورفض المساومة. «قلم موهوب، خير عندي من كنوز الدنيا بأسرها». كانت تلك كلماته يوم سلمها عقد العمل لتمضي عليه، بعد سنة سوداء من البطالة.

يبدو أنه مهما كانت أصابع الأخطبوط طويلة فلا يسعها أن تدرك كل أرجاء البحر. .

لماذا يرحل العظماء قبل الأوان؟ ألا يستحقون أن يمنحهم القدر الوقت الكافي ليتركوا بصماتهم وشما على جبين التاريخ؟

سي مصطفى كان مثلها الأعلى. على يديه تعلمت أبجدية الصحافة وأخلاقياتها وفنونها. كان مثقفا من بداية الميم إلى نهاية الألف. مثقفا بكل ما تحمله كلمة الثقافة

من عمق واتساع. أدخلها إلى عالم الإعلام من الباب الكبير. كان من البشر القلائل الذين لا يبخلون بمنح حنكتهم وتجربتهم وعلمهم لمن يصغرهم سنا وباعا، دون حسابات ولا «تكمبيص» ولا «تخديم مخ». لم يمهله المنون ليرى ثمار جهوده. فاجأته أزمة قلبية وهو على كرسيه بصدد تحرير مقال. رحل شهيد القلم.

أربع سنوات من العمل معه مرت كحلم جميل. استيقظت منه مذعورة على فجيعة موته ثم كابوس تعويضه بسي مرتجى. شخص نزق، حاول منذ الشهر الأول من توليه منصبه، إتمام رسالة سي صلاح الدنيئة.

سي..سي..كفى سأسأة..لا أحد منهما يستحق عبارة التشريف تلك. صلاح ومرتجى ليسا سوى وصمة عار على قفا الجنس البشري. كتلة من الغرائز الهوجاء، لا يسيرها عقل.

في ذلك الصباح المشرق السعيد قدمت استقالتها لـ...مرتجى. وضعت مخطوط الاستقالة على مكتبه. خرجت مرفوعة الهامة وعلى وجهها ابتسامة رضا وانتصار.

أبواب مجلة «تونس الثقافية» مفتوحة على مصراعيها، تنتظر قدوم نجم ساطع فرض في بحر أربع سنوات، إشعاعه في سماء الإعلام التونسي المكتوب..نجلاء منصور.

عادت عيناه تهمس إليها بسعادته لرؤيتها وبشوقه إليها و...انتفضت على السرير. انتشلها ارتعاش هاتفها المختبئ بجيب بنطلونها من دهاليز خيالاتها. همت

بأن تتجاهله. ولكنها تناولته في النهاية. ظهر لها رقم تجهله. قبلت المكالمة:

– آلو نجلاء؟

– نعم. من المخاطب؟

– أنا ذاكر. هل نسيت صوتي؟

كيف لي ذلك؟ تساءلت ونغمات أغنية أم كلثوم تدندن من بعيد «أنساك.. دا كلام.. أنساك يا سلام..». أضاف أمام صمتها:

– أرجو ألا أكون قد أزعجتك؟

– لا.. لا.. مطلقا.

– لماذا عدلت عن مرافقتنا لتناول العشاء؟ ألا يعجبك مطعم الأمواج؟

– ماذا عما تتحدث؟ لا علم لي بالموضوع.

– بلى نجلاء، دعاك سي شريف لما كنا في مكتبه هذا الصباح وقبلت الدعوة.

– لا أدري.. في الحقيقة لم أكن مركزة تماما.. كان فكري مشغولا بمسائل متعلقة بالعمل.

– حسنا، إذا كانت متعلقة بالعمل فلا مانع لدي. قال لها مازحا ثم واصل الحديث بجدية. نجلاء كنت آمل أن نتحدث قليلا قبل البداية في العمل معا. أريد الاجتماع بكل رؤساء التحرير في المجلة. قبل ذلك أريد إطلاعك بصفة مبدئية على البرنامج الذي أعددته لتطوير المجلة والخروج بها من الأزمة التي تمر بها حاليا. غدا سيكون لنا حديث في الموضوع، اتفقنا؟

– اتفقنا ولكن بعد الظهر، في الصباح لدي موعد في مقر جمعية الأمل.

– حسنا إلى الغد بعد الظهر.

بقي الهاتف بيدها. أي مس من الجنون أو الإغماء أو الصمم، أصابها حتى لا تنتبه إلى دعوة العشاء؟ آه.. من الأفضل أنني لم أنتبه. تذكرت أن سي شريف يصطحب دائما ابنته سلمى الحرباء في كل دعوات العشاء. كفاها أن تتحملها أثناء فترة العمل.

نظرت إلى حاسوبها المحمول فوق الطاولة الصغيرة قرب النافذة. كان يناجيها لترفع غطاءه.. يناشدها أن تدغدغ حروفه السجينة في تلك الزنزانة الالكترونية العجيبة التي يسمونها لوحة المفاتيح.

تعودت على السهر كل ليلة، كي تحرر الحروف من غياهب سجونها.. سجن الروح.. سجن الفكر.. وسجن البلاستيك. تعالت صرخات الحروف.. دون أن تدرك مسامعها. صوت من الأعماق طغى على كل شيء.

شعرت بإرهاق شديد. سقط حذاؤها متوسط الكعبين على الطنفسة التقليدية «المرقوم» المزوقة بألوان وأشكال متنوعة. استرخت على سريرها المفروش بشرشف وثير ذي لون أحمر عنبي. غرق رأسها بعمق الوسادة الكبيرة الناعمة. ثقل جفناها. تناهى إلى سمعها من المجهول صوت يغني «أغدا ألقاك.. يا خوف فؤادي من غدي..».

2

يوم من أيام أكتوبر كأحلى ما يكون، بدأ النهار مشرقا وجميلا. . رغم عناد تلك السحب المتزلفة المتفرقة في الأفق، التي أصرت أن تفرض حضورها غير المرغوب فيه، في عرس الشمس الخريفي. . حاجبة بين الفينة والأخرى، نور العروس ودفئها الإلهي.

أسرعت الخطى. لم يكن حذاؤها الأسود ذو الكعبين متوسطي الارتفاع، ليعينها على المشي الحثيث. «ما كان علي أن ألبس هذا الحذاء»، خمنت وهي تشق الإسفلت على مستوى نزل «الأفريكا» لتصل إلى مقر مجلة «تونس الثقافية» في نهج ابن خلدون بتونس العاصمة.

تركت سيارتها، كالعادة، في المرآب قبالة الساعة العملاقة، لتتم المسافة التي تفصلها عن مقر العمل مشيا على الأقدام. تحب المشي. ترى فيه محرك الخيال ومكبح الاضطراب النفسي.

كانت راضية عن زيارتها الميدانية لمقر جمعية الأمل الخيرية. أمضت هناك كامل الفترة الصباحية من العمل. أجاب الجميع عن أسئلتها، حتى الجريئة منها، بصراحة ورحابة صدر.

ابتسمت متذكرة نائلة، رئيسة الجمعية، وهي تصف لها بتأثر واعتزاز، سعادة الأطفال المعوزين لحظة تقبلهم

لهداياهم المشتملة على أدوات مدرسية وميدعات وبدلات رياضية.

التزمت بوصفها رئيسة تحرير قسم المسائل الاجتماعية، بتخصيص مقال كل شهر لتسليط الأضواء على الأنشطة الجمعياتية ذات الطابع الخيري. اتفقت مع نائلة على مرافقتها في إحدى الزيارات الميدانية حتى تتعرف عن كثب على نشاط الجمعية.

مهما اختلفت الأديان والأجناس والأعراق واللغات والألوان فألم الإنسانية واحد. لن يجرؤ بشر على التبجح بلقب «إنسان»، إذا لم يشعر يوما بأنين المعذبين في الأرض.. معاناة المنسيين والبؤساء. إذا لم ير أياديهم الممدودة نحوه تطلب فيء التآزر والرحمة في بيداء الهمجية والأنانية القاحلة. فما بالك لو كانت اليد الممتدة نحوك يد أخ.. شقيق تسري في شراييك دماؤه.. تربط بينكما جسور الانتماء إلى نفس المصير..

كم جميل أن نهدي السعادة إلى الأطفال.. إلى الآخرين.. ضحايا النسيان واللامبالاة.. ضحايا الحظ العاثر.. ما أجمل أن نقلب حزنهم وشقاءهم، ولو للحظات، إلى فرح يشع بأعينهم فيملأ عالمهم الصغير ضياء.. كم عميق أن نبتعد ولو لدقائق عن تفاهة حياتنا اليومية ونرسل إلى هؤلاء، دقيقة من تفكيرنا على الأقل، يشعرون بها فيحسون أنهم ليسوا وحيدين على هذه الأرض..

أفلتت من قبضة صدرها تنهيدة عميقة.. السعادة.. أي لفظ.. وأي معنى.. هل هي حقيقة أم سراب يندثر

في تلك اللحظة التي يخيل إلينا أننا اقتربنا منه. أننا أمسكناه؟

واصلت سيرها على رصيف شارع بورقيبة. بدأت حبات مطر خجولة تتساقط رذاذا، تنشد أحضان الأرض وتذوب معانقة ثراها العناق الأبدي. شرع سيل من الصور يتدفق من المجهول ويهدد بالانفجار.

السعادة.. في يوم ما لامستها.. صافحتها.. عانقتها.. إلى حد الاختناق. تلك الفرحة القصوى التي تجعل المرء يتصالح مع الذات. مع الناس. مع الكون..

تلك البهجة التي تجعله يجري ويقفز ويطير طوال النهار، ثم ينام بالليل كطفل صغير. يحتضن دبه المفضل، وابتسامة رضا وأمان ترتسم على محياه.

عرفت تلك السعادة طوال السنة التي جمعت قدريهما.

كانت علاقتهما بركانية، حتى لكأنّك ترى الحمم تضطرم في سعير كل لقاء بينهما.. لا تسمع انفجارا ولا ترى دخانا. ولكن الحرب التي تجمعهما ضروس.. حرب غريبة تندلع في الصباح وترتفع الرايات البيض في الليل في هدنة ليست كغيرها. هدنة بين عاشقين سعيدين باللقاء. بعد أن هاما طويلا في رحلة البحث المضنية عن توأم الروح «L'âme sœur» كما يقول الفرنسيون.. هدنة بين جسدين يتلظيان بجحيم الرغبة في الانصهار الكلي..

شعرت بالدماء تتدفق إلى رأسها وبحرارة شديدة على وجنتيها. كانت الهدنة بينهما، في تلك الغرفة

من شقة ذاكر، أقرب إلى الحرب منها إلى السلام.. جسدان لا ينشدان السلام..كل واحد يريد افتكاك الآخر..الاستحواذ عليه..استعماره..حتى تستوطن روحه فيه..حتى يصبح جزءا منه..تابعا له..لا أحد يعلم من التابع ومن المتبوع..ففي ذلك مد وزجر.. أخذ وعطاء..

كانت الحرب بينهما..لغة الحب..

لم تعد تحسّ وهي تقترب شيئا فشيئا من مقر المجلة سوى وقع خطواتها المتناغمة مع دقات قلبها...وصوت «جاك برال» يغني من أغنية «العاشقين المسنين»..ذلك المقطع المفضل لديها «..أليس العيش في سلام أسوأ فخ للعاشقين..».

ظلت تمشي بين المارة على رصيف شارع بورقيبة. الساعة العملاقة تشير إلى تمام الثانية بعد الزوال. بعض قطرات المطر تعاكس مياه النوافير المحيطة بالساعة العملاقة. الرصيف يعج بالمارة، يتدفقون من كل مكان، يتدافعون ويحثون الخطى، كل يحاول سبق الآخر، كل إلى وجهته، كل نحو ضالته، كل إلى مصيره، وسط الزحام، وضوضاء السيارات، و«بزنسة» بعض المتحرشين، وغوغاء عصافير شارع بورقيبة، ورائحة الشواء الثقيلة الهاربة من ضيق مطاعم الأكلات السريعة، وعبق «الكافي كرام» و«الاكسبريس» يحلق فوق رؤوس الجالسين على كراسي الخيزران الاصطناعي في مقاهي الأرصفة بالشارع الكبير للعاصمة تونس.

لم تكن صديقاتها مغرمات مثلها بالعاصمة. ولكنها اتفقت معهن على ضرب موعد أسبوعي في مقهى «لونيفار». على رصيف شارع بورقيبة...

تعرفت على أحلام وآمال في الكلية، أما أسماء فهي الصديقة الوحيدة التي بقيت لها من سنوات المراهقة في المعهد.

درست أسماء اللغة الانكليزية في الجامعة. تحصلت على كل الشهادات العليا. هي الآن أستاذة محاضرة في كلية الآداب بمنوبة، نفس المؤسسة التي زاولت فيها دراستها الجامعية. هي أكثر أفراد «الشلة» تعقلا ورصانة.

تزوجت بمجرد تخرجها من شقيق زميلتها في الكلية الذي يمارس مهنة الطب البيطري. لها بنت عمرها ثماني سنوات وطفل عمره ست سنوات. تقيم في فيلا قديمة فرنسية البناء ذات طابقين بضيعة في منطقة مرناق الفلاحية بالضاحية الجنوبية للعاصمة.

نذرت حياتها إلى العناية بأبنائها وزوجها. تكاد تكون لقاءاتها مع نجلاء أو مع بقية «الشلة»، فرصتها الوحيدة للترفيه عن النفس.

أحلام، كانت اسما على مسمّى. منذ صغرها وهي تحلم بتقديم الأنباء على شاشة التلفزة. لهذا اختارت كلية الصحافة. منذ تخرجها أقامت الدنيا وأقعدتها للحصول على مقعد أمام الكاميرا.

ذهبت كل محاولاتها أدراج الرياح. اتضح لها أن دخول ذلك الميدان في غاية العسر إن لم يكن مستحيلا في غياب المعارف والوساطة. «الأكتاف». اكتشفت

أيضا، أن ماضيها السياسي في الجامعة ظل يتبعها إلى ما بعد التخرج. الغريب في الأمر أنها لم تمارس السياسة ولكنها للأسف وقعت بحب أحد اليساريين بالجامعة. كان حبيبها من بين رؤوس المعارضة وكان كثير النشاط. اضطرت في بعض الأحيان إلى مساعدته، باسم الحب والخوف من أن يتخلّى عنها، على توزيع بعض المناشير كما حضرت معه إلى بعض الاجتماعات الممنوعة. بعد تعارفهما بسنة، قبض عليه أثناء إحدى الإضرابات الطلابية وحكم عليه بالسجن. انتهت علاقتهما بعد ذلك.

ظنت أن ملف علاقتهما قد أغلق نهائيا. ولكن أخبرها أحدهم أن «ملفها السري» ملوث وهو ما حال دون حصولها على مقعد لدى الإدارة الحكومية.

كانت الصدمة شديدة على أحلام. أصيبت بانهيار عصبي حاد. نصحها الأخصائي في العلاج النفسي أن تحاول تغيير الأجواء بالتجول في أنحاء البلاد. ولكنها كانت قد كرهت البلاد نهائيا. ضحية هذه البلاد. البشر يقترفون الآثام وهي تدفع ثمن خطاياهم مقتا وهجرانا.

في النهاية جاءها الفرج على يدي خالتها منية المهندسة المعمارية المقيمة في دبي. أرسلت إليها تذكرة للتسوق في مهرجان دبي للتسوق ولقضاء شهر أو أكثر هناك. طارت أحلام إلى هناك ولم تعد، منذ عشر سنوات، إلا لقضاء بعض العطل الدينية بين أفراد العائلة في تونس.

بعد مدة من سفرها إلى دبي، بينما كانت تشاهد التلفزيون، صادفت إحدى الإعلانات تتحدث عن عرض لشغل خطة مذيعة تلفزية بقناة دبي. قدمت مطلبها

عبر البريد الإلكتروني. تم قبول ترشحها بعد شهر من«الكاستينغ» و«التاست كاميرا».

هي الآن متزوجة بصحفي لبناني يشتغل بنفس القناة ولها بنت عمرها ثلاث سنوات.

آمال كانت أكثر أفراد «الشلة» تطرّفا وتحرّرا ورفضا لكل التقاليد والقيود الاجتماعية. منذ سنوات الجامعة كانت تخطط لمستقبل مهني وإنساني خارج تونس. كانت دوما تجزم أنه ليس لأفكارها الثائرة التحررية مكان هنا. كانت «فيمنيست» إلى حد النخاع. من شعاراتها مثلا، رفضها المطلق لفكرة الزواج الذي تعتبره تقييدا لحرية الطرفين، وأدا لإبداعهما وطمسا لشخصية المرأة.

كانت شديدة التأثر بأفكار «سيمون دي بوفوار»، «جان بول سارتر»، «ألبير كامو»، «نيتشه» وغيرهم.

كانت تواجه أقسى الانتقادات مدندنة بأغنية جورج وسوف «كلام الناس لا بيقدم ولا يأخّر. .كلام الناس ملامه وغيره موش أكثر. .».

منيت كل تجاربها العاطفية أثناء فترة الكلية بفشل ذريع. كانت كلما وقعت في غرام أحدهم، أو توهمت ذلك، لا تتردد في أن تمنحه كل شيء. لم تكن فتاة سهلة كما ذهب في ظن الجميع وإنما هي ذات كرم وتلقائية نادرين في مجتمع بني على النفاق والأنانية. .»ذات أفكار آتية من المريخ»، كما تمازحها أحلام. فقدت آمال ثقتها في الشباب التونسي وفي نفس الوقت رفضت أن تحترم شروط اللعبة. كانت تمقت اللون الرمادي. «أفضّل أن أخسر كل الرجال على أن أخسر نفسي». لم تعد تؤمن بالحب. «ما يسمونه الحب هو استعداد فكري ونفسي

للدخول في حالة هستيرية معينة تثبت أن المازوشية غريزية لدى البشر».

منذ أتمت دراستها الجامعية، التحقت بشقيقها المقيم مع زوجته الفرنسية في باريس. هناك شرعت في تنفيذ مخططاتها. طفقت تتجول من مجلة إلى أخرى تقدم مطالب عمل. تم قبولها بعد بضعة أشهر صحفية لدى مجلة فرنسية ثقافية جامعة «L'intellectuel». هي الآن رئيسة تحرير قسم شؤون المرأة بها، وتمارس إضافة إلى ذلك العديد من الأنشطة الاجتماعية مثل انخراطها في الجمعية الفرنسية لحماية المرأة المعنفة وأخرى لتشريك المرأة في العمل السياسي، فضلا عن تأليفها لكتابين يتعلقان بدور المرأة في الحياة الثقافية والسياسية.

تعيش منذ أربع سنوات دون زواج مع فرنسي من أصل إسباني. لم تنجب أبناء باختيارها.

«أنا مش قد المسؤولية هذي». من يدري قد تغير رأيها في أحد الأيام.

كانت مواعيد «الشلة» في مقهى «لونيفار» أيام الدراسة الجامعية من بين أحلى ذكرياتها. تعتقد أن أطنان الضحك الهستيري التي تمخضت عنها تلك اللقاءات قادرة على توفير الاكتفاء الذاتي الوطني من بضاعة الضحك النادرة.

أما أسباب الضحك فمتنوعة، من زلات لسان بعض الأساتذة، إلى معاكسات بعض الزملاء «الطافيين» في الجامعة، مرورا بالمصادمات الحضارية بين تحرر آمال إلى درجة التفسخ وبين محافظة أسماء إلى درجة التخلف.

كانت أحلام مختصة في الخيالات المضحكة خصوصا منها تلك التي تتصور فيها شخصيات رسمية مثل بعض رجال السياسة العالمية أو بعض الأساتذة في الجامعة أو حتى أوسم الشباب في الكلية أو خارجها، وهم بصدد قضاء حاجاتهم البشرية.

أحيانا تنفجر الضحكات من مجرد «تمقعير» إحداهن وخصوصا أحلام ونقدها لتصرفات واحد من بين المارة الأبرياء. .الذي يختفي في الزحام دون أن تكون له أدنى فكرة عما قالته في شأنه مراهقات طائشات. .

أين تلك الأيام؟. .لم يبق منها سوى صدى قهقهات بريئة نائية. .

بعد أن تفرقت الصديقات، اتفقن على أن تكون عشية اليوم الثاني من عيد الفطر وعيد الأضحى من كل سنة موعدا أبديا بينهن، في نفس المقهى. منذ سنوات لم تتخلف إحداهن عن الموعد إلا نادرا.

يروق لها المشي في شوارع المدينة. لا تمل التأمل في بناياتها ومعالمها القديمة، تلك التي تعكس ذاكرة الوطن. «باب بحر» الذي تحدى الزمن. تمثال ابن خلدون الواقف بشموخ قبالة كاتدرائية «سان فانسون دو بول وسانت أوليفيا». مرورا بالمسرح البلدي الذي تم ترميمه منذ سنوات. ثم تلك البنايات التي تركها الاستعمار الفرنسي بصمة لزيارته غير المرغوب فيها أو ربما فدية اعتذار تكفيرا عن غلطته التاريخية، ألم يفرض على شعب حر، ويلات حماية مزعومة لم يطلبها، وعبء استعمار كان في غنى عنه؟

تصادقت مع تلك الأشجار دائمة الخضرة، المزوقة في شكل مكعبات، تطرز شارع بورقيبة، فتبدو وشيا يتوسط جبة تونسية من أعلاها إلى أسفلها فيزيدها رونقا ووقارا.

تصادقت أيضا مع محلات الورود التي نقلت منذ سنوات إلى مكان محاذ لمحطة الرتل الرابط بين قلب المدينة والضاحية الشمالية للعاصمة. ترتادها مرة كل أسبوع لتقتني باقة أنيقة، تساوم عم عمار «المغلاوي» في ثمنها، ثم تزوجها إلى أجمل إناء من الكريستال في شقتها، وتتركها لتمضي أحلى أسبوع عسل في حياتها القصيرة الفانية.

تحب العاصمة كثيرا. عاشقة المدينة، هكذا كان يصفها ذاكر.

ذلك اليوم، كانت تمشي دون أن ترى..دون أن تسمع..ودون أن تحس بأي شيء حولها.. ولا حتى وشوشة العصافير المحببة لديها.. تلك العصافير الجامحة..الباحثة عن مكان لها في عالم البشر..عالم الاسمنت المسلح والإسفلت والفولاذ. كل حواسها تعطلت.لم يعد يربطها شيء بالعالم الخارجي.

بعد بضع دقائق ستراه، ستتحدث إليه. ما عساها تقول له؟ بل ما عساه يخبرها؟ هل ينبش تراب الماضي؟ لماذا غادر الولايات المتحدة الأمريكية؟ ما الذي سيفعله في تونس؟ لماذا اختار العمل في مجلة «تونس الثقافية» بالذات؟ هل كان ذلك صدفة أم أنه يعلم بأنها تعمل هناك منذ ثلاث سنوات؟ ثم عن أي برنامج تحدث ذاكر؟

ولماذا ذكر الأزمة التي تمر بها المجلة وكأنها على شفا الإفلاس؟

يعلم الجميع بالمجلة، أن عدد النسخ المبيعة واجه انخفاضا متفاوتا خلال الستة أشهر الأخيرة. منذ ثلاثة أشهر، بعثت المجلة خلية طوارئ لتحليل أسباب الانخفاض وإيجاد حلول للمشكل، الذي اتفق الكل على أنه ظرفي. في الشهرين الأخيرين، عادت المبيعات إلى الارتفاع نسبيا، وهو ما يبشر بتجاوز مرحلة الخطر. فلماذا إذن كل هذا التشاؤم والمبالغة؟

تهاطلت الأسئلة دون أن تجد لها الأجوبة الشافية. تناثرت حبات مطر خفيف على مظلات المقاهي..ثم تدحرجت إلى مخدعها الأخير بين شقوق الأرصفة، لتغفو تحت أحذية الزبائن.

واصلت سيرها على نفس الوتيرة..وقع المطر على شعرها..رائحة اختلاطه بالتراب..كم كان ذلك مريحا..ألأنّها ولدت في ليلة ممطرة من ليالي الشتاء الباردة، منذ ثلاثة وثلاثين سنة مضت؟

بخور التزاوج بين المطر والتراب في حديقة المنزل بضاحية باردو، أول عطر طبيعي يدغدغ أنفها الصغير.

عاشقة الطبيعة، هكذا كان يصفها كامل منصور.

أيقظت تلك الرائحة حواسها، لتجد نفسها أمام البناية التي تحضن مقر المجلة في طابقها الرابع. لم تكن من هواة الصعود السريع. أهملت كعادتها، وسوسة المصعد الآلي، يغازل تعبها ويغريها بلذة البلوغ السريع إلى القمة.

بدأت صعود الدرج على وتيرة واحدة. لعلها أرادت ربح الوقت لتجميع شتات أفكارها ولملمة أشلاء

عواطفها المبعثرة. ظهوره من جديد على ركح حياتها، انفجار عنيف، نسف استقرارها النفسي ودمر ما أقنعت به نفسها من مسلمات: «البعيد عن العين، بعيد عن القلب»، «يموت الحب بمرور الزمن»..

أخبرها بابا كامل، أن الجريمة والعقاب يسقطان بالتقادم. فلم لا يكون ذلك مصير الحب؟

كان باب المجلة مفتوحا مثل عادته. توجهت مباشرة نحو مكتبها. بعض الموظفين بصدد الرقن على الحواسيب في الفضاء المفتوح، وبعضهم يتناول مشروبا من المشرب الأوتوماتيكي. رؤساء التحرير في مكاتبهم المنفردة. ألقت التحية على من اعترضها من الزملاء.

حانت منها التفاتة إلى مكتب رؤوف. بابه موصد. سيعود من مهمته في باريس يوم غد مساء. هذا ما علمته من آخر مكالمة لهما معا قبل يومين. لم ينس أن يخبرها ضاحكا أنه بصدد احتساء كوب من النبيذ الأبيض الفرنسي في «بيسترو الشانزليزي»، في قلب العاصمة الفرنسية. شعرت بالغيرة، الماكر كان له ما أراد.

– لماذا لا تصدقين أن الصداقة يمكن أن تتحول إلى حب؟ سألها رؤوف ذات مساء وهما يحتسيان كوكتالا، على نخب توقيعه عقد عمل متواصل بالمجلة، كان ذلك في مطعم « القرصان» قرب ميناء سيدي بوسعيد، شمال العاصمة.

دعاها إلى العشاء ليحتفلا معا بهذا الحدث السعيد. استغل المناسبة ليطلعها عما يختلج في صدره من مشاعر

نحوها. لم تستغرب الأمر. تفطنت إلى ميله لها منذ بدأ العمل بالمجلة. رفقته ممتعة جدا، لذلك تمسكت بصداقته.

لكنها حرصت على إقناعه بأن علاقتهما لا يمكن أن تتجاوز حدود الصداقة أو الزمالة الحميمة.

ينقصه الغموض وأناقة الحركة التي تعشقها لدى الرجل.

رؤوف يتحدث عن كل شيء، وعن لا شيء. قد يمضي الساعات وهو يتحدث بإطناب باحث أكاديميّ عن النزعة الرومانسية في شعر أبي القَاسم الشابي، أو عن ظهور الرمزية في الشعر العربي الحديث مثل شعر يوسف غصوب وأديب مظهر وبشر فارس، أو عن مظاهر النزعة الوجودية لدى «سارتر» وصديقته «سيمون دي بوفوار». وقد يحدثك أيضا عن كتاب «الثابت والمتحول» لأدونيس، الذي يعشقه رؤوف ولا يمل انتقاء بعض المختارات منه.

في المقابل، قد يخبرك أنه شعر بألم في بطنه واضطر إلى دخول الحمام بصورة مستعجلة. قد يتجشأ أمامك بملء فيه وهو يتناول مشروبا غازيا أو كأسا من البيرة ثم يتم حديثه وكأنّ شيئا لم يكن. قد يقترض منك ثمن عشائه، لأنه قضى على مرتبه منذ الأسابيع الأولى من الشهر.

كثيرا ما نصحته بتغيير نظاراته ذات الزجاج السميك أو استبدالها بعدسات لاصقة أو حتى إجراء عملية تقويم لمستوى النظر بواسطة أشعة الليزر. فرضت عليه أن يقلم أظفار خنصريه. لماذا يحرص بعض الذكور على

تطويلها؟ لإزالة بقايا اللحم من أسنانهم بعد التهام المشوي. أو ربما لتنظيف أنوفهم. أو أماكن أخرى..

ألحت عليه بتغيير مظهره وشراء بدلات جديدة مكان تلك البدلات البالية التي يرتديها بكل فخر واعتزاز.

لحسن الحظ، لم يكن ممن تشتم عليهم رائحة كريهة، ولكنه لم يكن ممن يتضمخون بالعطورات الفاخرة، إذ يفوح منه دوما عطر «القوارص» أو تلك العطورات غير المعلبة. يفضل صرف دنانيره في متع السهر واللهو وأحيانا في شراء بعض الكتب.

كثيرا ما كانت تتساءل، لم لا يهتم الكثير من المثقفين، مثل رؤوف، بمظهرهم الخارجي؟ لم لا تعنيهم أبسط قواعد الأناقة؟

كان الأمر يثير حفيظتها ويزعجها. تحب المثقفين وتحترمهم. تعتبر نفسها واحدة منهم. كانت تأمل أن ينعكس إشعاعهم الثقافي على هندامهم لتتوازى رفعة تفكيرهم مع أناقة شكلهم الخارجي، فيندثر بذلك «كاريكاتور المثقف البوهيمي».

– لأنني على يقين بأن الحب يولد حبا منذ البداية، ولا يولد صداقة ثم ينقلب إلى عشق وهيام.

من يعتقد أنه أغرم بعد علاقة صداقة، إنما هو واهم. قد يكون وقع في الحب منذ البداية، لكنه ببساطة لم ينتبه إلى ذلك. أجابته مبتسمة وهي تضع الكوب الفارغ على الطاولة.

– أنت على حق نجلاء. الآن اتضحت لي الأمور. أنا مغرم بك منذ البداية، ولكنني لم أتفطن إلى ذلك إلا الآن.

– دعك من هذا المزاح الثقيل. أجابته بلطف. كلانا يكنّ للآخر معزّة خاصة، دون أن يصل الأمر إلى الحب. أنت فقط متعلق بي قليلا لأنني أول من خفف أزمتك بعد انفصالك عن سعاد. أتذكر كيف كنت تصف لي عشقك لها وهيامك بطيفها. أنت بحاجة إلى من يحتل مكانها في فؤادك، وأنا أول من اعترض سبيلك.

– أرجوك نجلاء، لك الحق في كل شيء، إلا في أن تشككي بمقدار حبي لك. ربما لست مغرمة بي بعد، وهذا طبيعي لأننا لم نتعارف إلا منذ ستة أشهر. كل ما أطلبه منك، هو أن تتأني وتمنحي نفسك بعض الوقت لتقرئيني عن كثب، كما تعودت أن تقرئي كتابا جديدا. بعد ذلك يبقى الحكم بيديك.

ذلك المساء، ابتسمت له بحنان أخوي. أي وقت يتحدث عنه رؤوف؟ هل للزمن سلطان على العشق؟

بضع دقائق أمضتها مع ذاكر، يوم لقائهما التاريخي الأول في بناية المكتبة الوطنية بتونس العاصمة، كانت كافية لتقع في غرامه. هي التي أمضت جزءا كبيرا من حياتها تتجول بين الملاهي والمطاعم والعلب الليلية ومختلف أماكن اللهو والترفيه، ما كانت تتصور لحظة واحدة أن تلتقي برجل حياتها في خزينة للكتب.

كانت كلما أخبرت واحدة من صديقاتها عن مكان لقائهما الأول، تنفجر في ضحكة ساخرة قائلة: «امبوسيبل»، غير معقول ألم تجدا غير هذا المكان للتعارف؟

كانت تذهب إلى هناك، لإجراء بعض الأبحاث المتعلقة بمقالاتها. في تلك الفترة كانت تعمل بجريدة

«الفجر». أسند لها القيام ببحث حول وضعية المثقفين التونسيين في عهد البايات. لم تكن تحب ذلك الفضاء المغلق. كانت تشعر بانقباض كلما تخطت عتبته. تمقت رائحة الوثائق القديمة. بعد أن التقت به هناك، أضحت تعشق المكان.

ولادة الحب لا تخضع إلى مقاييس الزمان والمكان. الحب لا يحتاج للزمن كي يولد. قد يغذيه الزمن فيكبر وقد يسممه فيموت. أما خلق الحب فتحكمه قوى خارقة، مجهولة، بعضها يسكن فينا وبعضها يأتي من المجهول.

كيف تفسر أنها التقت بذاكر ذلك اليوم بالذات، في تلك اللحظة الحاسمة. يومها، ترددت قليلا قبل أن تقرر المجيء. لو تأخرت دقيقة، بل عشر ثانية، لما تصافحت عيناهما. لو غادر المكتبة قبل عشر ثانية لما تلامست يداهما.

كان بصدد إرجاع كتاب إلى مكانه على أحد الرفوف، حين دخلت القاعة. دون أن تنتبه إليه، توجهت نحوه لتتناول أحد الكتب. توقفت خلفه تنتظر ابتعاده. التفت حين شعر بوجودها خلفه والكتاب لا يزال بيديه. التقت نظراتهما، فحدث شيء غريب.

سألها إن كانت تبحث عن كتاب «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان» للكاتب المؤرخ «أحمد بن أبي ضياف». أجابته باستغراب «نعم». ابتسم وناولها الكتاب الذي كان بيديه. تلامست أيديهما، فحدث شيء غريب.

افترت شفتاه عن ابتسامة ساحرة، ثم قال لها تلك العبارات التي لن تنساها أبدا «يبدو أننا نبحث عن الشيء نفسه». منذ ذلك اليوم لم يفترقا طيلة سنة كاملة.

ساعة من زمن قضياها معا في ذلك المكان..مرت كأنها لحظات..استشعرت خلالها ثقافته الموسوعية وذكاءه المشع.كانت تطارد أخيلة سعادة من البلاستيك خلف شبان تختارهم لوسامتهم وكمال أجسادهم وانغماسهم في اللهو. ربما كانت تريد إرضاء نرجسيتها بملء قائمة غزواتها القلوب إلى حد التخمة..وربما كانت تبحث بين أحضان شباب مترف ضائع عن ثمرة نادرة..اسمها النسيان.

في لحظات تنقلب الموازين..تصبح للوسامة معايير أخرى..تمسي للمتعة وجوه أخرى..

كان يعد بحثا حول حرباء الاستعمار..تلك التي تقنعت بلون الحماية في عهد البايات ثم تعددت ألوانها فيما بعد لتصبح ما يسمى بـ«النيوكولونياليزم»..الاستعمار الجديد..

آفة أخطر مما سبقها تنخر جسد العالم الثالث المنهك الضعيف.

أخبرها بأنه أسس جريدة اسمها «المستقلة». دعاها إلى أن تنشر فيها بعض المقالات.

من المدهش فعلا أن تشعر في أعقاب ساعات تقضيها مع غريب، أنك تعرفه منذ سنوات بل ربما تعرفه قبل أن تولد..في حياة أخرى..في زمن آخر..في بعد آخر..في عالم موازي ربما..أن تشعر بظواهر كيميائية..

فيزيائية.. خارقة للطبيعة تحدث بينكما تفاعلات شبه نووية قد تهدد السلام الكوني..

كانت تعتقد بل تجزم أنها وقعت في الحب قبله، عديد المرات. ولكن لما تعرفت عليه استوعبت تماما كلمات أغنية الست حين تقول: «.. اللي شفتو قبل ما تشوفك عينيا عمر ضايع، يحسبوه إزاي عليا..».

حين يصل بك التفكير بعد التعرف على أحدهم، إلى أن كل علاقاتك السابقة لم تكن سوى سراب، أن كل تجاربك القديمة لم تكن سوى وهم، عندها.. عندها فقط.. تعلم أنك عشقت بصدق وجنون..

كانت على يقين بأنها لم تغرم برؤوف ولن تغرم به أبدا. ربما لأنه لا يحمل أوصاف رجلها.

وربما لأنها تعلمت ألا تربط العلاقات الغرامية مع زملائها في العمل، مع أن العروض تعددت وتفاوتت درجات إغرائها. لكن فرضية فشل العلاقة واردة، والاضطرار إلى مواصلة العمل مع حبيب سابق قد يكون تمرينا يوميا مرهقا على المستوى النفسي.

وربما.. لأنها بكل بساطة أمست عاجزة عن الوقوع في الحب مرة أخرى، بعد أن استنفذت مؤونتها وعتادها في غرام مهزوم.

شعرت حولها بهدوء غريب لم تعهده في ذلك التوقيت من النهار. الثانية والربع بعد الزوال. المجلة عادة دائمة الغليان.

أما أسباب الغليان فمتنوعة. هناك من يتحدث بالهاتف أو عبر «skype» أو «msn». يتناقش مع أحد الزملاء في أمور العمل. ولكن هناك أيضا من يستغل توقيت العمل ليبحر عبر «الانترنت» في عوالم ليست لها أدنى علاقة بعمله، خصوصا مع تعدد المواقع التي توفر لزوارها خدمات «ترفيهية» مختلفة. موقع «الفايسبوك» مثلا صار فيروس المبحرين على «الواب». بات عدم فتح حساب عليه مدعاة للاستغراب وحتى السخرية. تستعمل هذا الموقع لما تكون في شقتها للاتصال بأصدقائها الذين تفرق معظمهم إما بسبب العمل أو بسبب الزواج في مختلف مناطق البلاد وحتى خارجها. ولا تستخدمه أثناء العمل إلا لأغراض مهنية صرفة.

أخبرتها زميلتها سهام أنها في أحد الأيام، فاجأت أحد الزملاء في وضع غريب أمام حاسوبه بصدد ممارسة «تشات» ثنائي، الأول مع إحداهن، والثاني مع... المسكين، منذ ذلك اليوم لم يعد قادرا على مواجهة نظراتها. ليست من معارضي ممارسة الرجال أو النساء لتلك العادة، التي أثبت العلم فوائدها النفسية، ولكن ألم يكن الأجدر أن يمارسها في بيته. لعله خاف بطش زوجته، أو أن الحوار كان بدرجة من السخونة فقد معها حذره ورأسه أيضا..

ثمّة من الموظّفين من يهمس ويوسوس في الزوايا والأركان، ربما تأثرا بالتيارات الإبليسية أو «الساتانية»، يعد كمينا أو مكيدة للإيقاع بغيره من الزملاء والاستيلاء على كرسيه.

وهناك من يغلق الباب خلفه حتى لا يراه أحد وهو يلعق حذاء المدير. .أو ربما قفاه. .من يدري؟ ولكن لسوء حظه قد يحدث اللعق أحيانا فرقعة تقف لها الآذان. .

كم من أخبار وأسرار وخرافات كان ذلك المشرب الأوتوماتيكي شاهدا عليها.

تجزم أن لا أحد بالمجلة يتمنى يوما أن يتمرد ذلك المشرب على خرسه الطبيعي، وينقلب إلى لسان طويل متوحش يتلوى، فتسيل من لعابه تفاصيل كل ما أحاط به من حقائق وحوارات. .

كانت دائما تسارع إلى الاحتماء بغرفة مكتبها، اتقاء لضجيج الموظفين ورنين الهاتف والفاكس. .ليست من هواة الموائد المستديرة وحلقات التملق أو الثلب. إلى درجة جعلتها تطلب من سي شريف أن يأمر بتغليف باب مكتبها بغلاف جلدي عازل، يقيها ويلات التلوث السمعي.

أمسكت مقبض باب مكتبها. قبل أن تديره، سمعت زميلتها سهام تناديها. التفتت وانتظرتها.

قبلتها سهام وبادرتها بالسؤال:

– لماذا لم تجيبي على نداءاتي الهاتفية طيلة الصباح؟

– نسيت الهاتف في المنزل. خيرا يا سهام. ما الجديد؟

– أي خير، قالت سهام هامسة وفي عينيها قلق غير عادي. ألم تعلمي بما حصل من تغيير؟ لا. .لا تفتحي الباب، يجب أن أخبرك بما جد قبل أن تدخلي.

– ما الأمر؟ لماذا تهمسين؟ استغربت نجلاء وهي تدير المقبض وتفتح الباب ملتفتة إلى سهام خلفها. تعالي، سنتحادث داخل المكتب، أنا متعبة جدا، ينبغي أن أجلس قليلا حتى..

تجمدت. اختنق الكلام في حنجرتها. سمعت من خلفها وقع خطوات سهام تبتعد مسرعة.

أمامها، كان ذاكر هناك، جالسا بمكتبها.

3

خيّم صمت رهيب على المكان. تسمرت بمدخل المكتب. بقيت يدها ممسكة بمقبض الباب المفتوح. بات نقطة ارتباطها الوحيدة بالعالم الخارجي.

كان مكتبها ولكنه فقد أبسط تقاسيمه المعهودة. لم تكن طاولتها البيضاء هناك، في مكانها طاولة بنية، أكبر حجما، من الخشب الرفيع موشاة بنقش فضي.

اختفى حاسوبها المكتبي، أمام ذاكر حاسوب محمول من طراز رفيع، ذو شاشة كبيرة. خزانتها البيضاء ذات الرفوف انسحبت أيضا لتحتل مكانها خزانة كبيرة ذات رفوف في الوسط وأبواب في الأعلى والأسفل.

أين الصورة العائلية التي تجمعها بوالديها وشقيقها وليد، تلك التي تخلد ذكرى نجم طفولتها الهارب؟ أين لوحتها التجريدية الممضاة من الرسام الشاب وليد منصور؟ لطالما استقبلت رحلاتها الكثيرة في عالم الخيال وأحلام اليقظة.

أين دفاترها، أين أقلامها، أين ستائرها البيضاء الشفافة الموشاة بدوائر فارغة سوداء؟ أين هي؟ أين نجلاء؟

رفع ذاكر رأسه. التقت عيناهما. تهللت أساريره. لم يتفطن إلى ما اعتراها من ذهول. بادرها قائلا وهو يقوم من كرسيه الأسود الفخم، وعلى محياه ابتسامة لم تنتبه إلى عذوبتها:

– أهلا بك نجلاء، تفضلي.

– ماذا تفعل بمكتبي؟ سألته بنبرة جليدية وهي تحدق به كمن يرى الشيطان لأول مرة.

– مكتبك؟ ماذا تقصدين؟

سمعت صوتا يشبه صوتها يسأله في همس مرير:

– ألهذا السبب أنت هنا؟ أهذا هو البرنامج الذي أعددته لتطوير المجلة؟

لا تتذكر جيدا كيف بارحت المجلة. كانت الصور في خاطرها مشوشة... مرتعشة.. ضبابية. لا يزال صوته يناديها «نجلاء.. انتظري» ثم طقطقة حذائه وهو يسرع محاولا اللحاق بها، ترن بمسامعها رنين الصدى ببيت مهجور. لا بد أنها كانت تجري لتصل إلى المصعد دون أن يلحق بها. خرجت مرفوعة الرأس. لم تكن ترغب في أن ينتبه أحد إلى ما ألم بها.

صفعة قاسية من ذاكر، كتلك الصفعة القديمة.. تركت أصابع الألم بصماتها أخاديد على أرض ذاكرتها.

دقت الساعة منتصف الليل ومعها ربيعها العشرون. أدخلت المفتاح بهدوء في قفل الباب. دخلت بعد أن نزعت حذاءها ذي الكعب العالي حتى لا يحدث وقعه ضجيجا. حاولت أن ترتب شعرها. أوصلها جلال أمام المنزل. ابتسمت. يا له من أحمق، لم يكفه ما حصل بينهما في شقته. لم يتركها تنزل من السيارة إلا بعد أن نفش شعرها وأجهز عليها بعناقه.

أحست بدوار. ما كان عليها أن تشرب الكأس الأخيرة. قاعة الجلوس مظلمة. يبدو أن الجميع نيام. أشعلت النور.

ارتعدت فرائصها. كان هناك جالسا على الأريكة الجلدية السوداء. لم تنتظر وجوده هناك. كان في إحدى سفراته. لم تتوقع عودته قبل يومين. تسمرت في مكانها دون أن تنطق بكلمة.

بادر بالهجوم قائلا بنبرة حانقة:

– أهذا تصرف بنات العائلات؟ منذ متى صرت تعودين في أنصاف الليالي؟ هل صرت تستغلين غيابي؟ هل أبتعد عن المنزل يومين وأعود لأجد ابنتي تتصرف كالرجال؟

حطمت غارات الأسئلة تماسكها فأجابته متعثرة:

– أمي على علم بكل شيء. اليوم عيد ميلادي وأردت الاحتفال مع الأصدقاء.

– أعلم أنه عيد ميلادك، اشتريت لك هدية وعدت قبل أن أتم الأسبوع. أدركت المنزل حوالي الرابعة بعد الزوال. لم أجدك بالمنزل. قالت لي زبيدة أنك تحتفلين مع بعض زملاء الجامعة. هل يمكن أن أفهم كيف وأين أمضيت ثمانية ساعات في الاحتفال؟ ومن ذلك الشاب الذي أوصلك؟ ولماذا بقيت معه بالسيارة ربع ساعة أمام المنزل؟

– حسنا.. هذا جلال زميلي أوصلني.. تنزهنا قليلا.. ثم ذهبنا للعشاء في مطعم «الكثبان» في قمرت و..

– وماذا احتسيتم؟

نظرت إليه بصمت. لا تدري كيف استطاعت أن تواجه نظرات الاتهام في عينيه. قفز من الأريكة واندفع نحوها كالمجنون وتشمم رائحتها. تراجع إلى الوراء وهو يمسك جبهته بخيبة.

– كان ظني في محله..غير معقول ابنتي أنا تعاقر الخمر..لكن لماذا؟ لقد ربيتك أحسن تربية ولم أبخل عليك بشيء..كل ما تطلبينه تجدينه في لحظة بين يديك..علمتك الاستقامة وحسن الأخلاق..

كان المرجل يشتعل داخلها والقدر في أوج الغليان. لا تدري كيف أفلتت تلك الكلمات دون وعي منها.

– أي جرم تراني اقترفت حتى تخاطبني بهذه الطريقة، كنت أحتفل مع بعض الأصدقاء، ما العيب في ذلك؟ وأنت هل لك أن تخبرني أين كنت ومع من؟ أنت آخر من يجوز له الحديث عن الاستقامة والأخلاق..

لم تكد تتم آخر حرف حتى فوجئت بيده تلطم وجهها. كانت صفعة واحدة لكنها حطمت ما تبقى من الصرح.

فوجئت بوابل من الأمطار وهي تتخطى باب العمارة الكبير لتحتمي بغربة الشارع. أخذت تهرول في طريق العودة إلى سيارتها.لم تحفل بالسيول المنهمرة التي بللت طاقمها الأسود وقميصها الأبيض.

أكان الأمر صدفة أم أن الطبيعة تعاطفت مع غضبها؟ هل تبنت دموعها وسترت ضعفها؟ هل ساندتها حيث خذلها البشر؟

أظلمت الدنيا تحت عبء سحب رمادية ثقيلة تنذر بمزيد من الغيث. تفجرت المياه من المواسير الملآنة

وبدأت رحلة سيلها الجارف إلى الفجوات الممتدة بين الرصيف والإسفلت. كان يوما ممطرا من تلك الأيام التي تشل فيها حركة المدينة في ظرف ساعتين من الزمن.. وكأن الدنيا قد انقلبت رأسا على عقب، وباتت السماء تغرق الأرض بمياه الأنهر والمحيطات.

كيف حصل كل هذا؟ كيف سمح ذاكر لنفسه أن يفتك مملكتها الصغيرة بالمجلة. هل عاد لينتقم لعزة نفس قد يكون أهدرها رفضها الرحيل معه إلى الولايات المتحدة الأمريكية للاستقرار بها نهائيا؟

لكنها فسرت له في تلك الليلة الغبراء التي علمت فيها بقرار سفره، أنها لا تتصور أن تعيش في بلد آخر غير تونس، وطنها الأم الذي حملها قبل أن تحملها أمها واستقبل بحب أول صراخ لها ثم أول خطواتها وصداقاتها ومغامراتها وأفراحها وخيباتها. كيف لها أن تهجر البلد الذي علمها الحب بأكبر حاء وأطول باء. البلد الوحيد الذي لا تحتاج إلى تأشيرة أو إلى بطاقة إقامة لتعيش فيه.

حاولت إقناعه. تمسكها بوطنها كان المبرر الذي أفصحت عنه. لكنه ليس الوحيد..

في أحد الأيام، قررت ألا تكون تلك المرأة مسلوبة الإرادة، التي باسم الحب تتبع رجلها أنى اتفق له الرحيل. كالشاة تمشي خلف راعيها. لن تكون تلك المرأة التي تمنح رجلا مفاتيح مصيرها وتسمح له أن يجعلها مجرد دمية لا تعرف إلا كلمة نعم.

لو اتفقا على السفر منذ البداية، لكان الأمر مختلفا.. لكن ما آلمها وزادها عنادا هو أنه تجرأ على مطالبتها باتباعه وكأن الأمر مفروغ منه ولا يستحق النقاش..

وكأنه قدرها المحتوم. وكأنها جزء منه أو هي متاعه الخاص. نسي في لحظة أنها إنسان حر له إرادته وكيانه المستقل.

كان العشق فيها طبيعة. غريزة. مرضا مزمنا. لا تدري. كانت مستعدة أن تمنحه الكثير باسم الحب. ما عدا شيئا واحدا. حريتها في تقرير مصيرها.

لا وجود لرجل في هذا الكون يستحق أن تضحي من أجله امرأة بحقها في صنع قدرها.

– أنت تعلمين كم أحب والدك. يجب أن تحب المرأة زوجها وتخلص له وتصون عرضه. بالنسبة إلى الرجل الأمر مختلف. قد ينظر الرجل هنا أو هناك، حتى وإن كان مغرما بزوجته. هذا طبع الذكور، عسير عليهم الاكتفاء بامرأة واحدة. لهذا حلل الله لهم أربعة نساء. صحيح أن الحبيب بورقيبة منع تعدد الزوجات في تونس منذ توليه منصبه كرئيس للبلاد، بمساهمته في إرساء مجلة الأحوال الشخصية التونسية.

كان متأثرا بالأفكار التحررية الرائدة للمناضل الطاهر الحداد، فمن روح كتابه «امرأتنا في العقيدة والمجتمع»، استلهمت فصول مجلة الأحوال الشخصية قواعدها التي رسخت حقوق المرأة، متحدية تصلب المواقف الرجعية لمناصري تجميد قواعد الشرع الإسلامي. أولئك الذين يقاطعون إعمال الرأي والاجتهاد لتفسير الشريعة وتطويعها لتغيرات الزمن وتطور الحياة.

ولكن، ما بطبع الذكور لا يتغير بمجرد فصول قانونية. قد يغير القانون عادات البشر ولكنه عاجز عن تغيير طباعهم. ثم إن الرجل العربي يحس دوما أن الشرع

في صفه. على المرأة التونسية أن تكون واعية بهذا المكسب وألا تضغط كثيرا على زوجها حتى لا تخسره.

كانت قد تجاوزت الخامسة عشرة لما بدأت تسمع من ماما زبيدة مثل هذه الشعارات. تكتفي بالإنصات رغم أن شيئا غريبا يثور في أعماقها.

لم تحتجب ماما زبيدة يوما بالسفساري مثل أمها ومعظم صديقاتها، ولكن فكرها كان يلتحف بشبحه. أكثر ما كان يثير حنقها هو استكانتها رغم ما تتمتع به من ذكاء وثقافة عالية.

كانت تريد أن تجيبها.. أن تقول لها الكثير..

لماذا على المرأة أن تعيش دائما متقوقعة في ظلمات الفوبيا من خسارة رجلها؟ هل لأنها تحبه أم لأنها غير قادرة على تحقيق ذاتها من دونه؟ هل أن خوفها على مصير أبنائها في غياب أبيهم هو سبب قبولها لقوانين لعبة لم تساهم في وضع شروطها؟ لماذا على المرأة أن تقبل بالوضع كما هو ولا تحاول أن تغيره، بل لا تحاول حتى أن تفكر فيه؟ لماذا عليها أن ترضى بالقوالب الجاهزة؟

أليست عقدة الخوف..فيروس الخوف هو مرض الرجل الذي سرب إلى المرأة عدواه؟ هو يخاف من المرأة وعليها، يخاف أن تفلت من قبضته، أن تتجاوزه، ألا يعود قادرا على احتوائها والسيطرة عليها، لذا فهو يصنع القوانين والقواعد الاجتماعية التي تجعلها سجينته إلى الأبد..هل تفطن إلى أن الخوف هو أقوى سجان.. هل أدرك أن الخوف هو الإحساس الوحيد الذي يجعل المرء يغلق باب الحبس على نفسه بيديه وهو يبتسم كالأبله متظاهرا بأنه استعمل حق الاختيار؟

ولكن في النهاية لا يزعجها اضطهاد الرجل للمرأة وسعيه الدائم إلى إرساء مجتمع رجالي يخدم مصالحه الأنانية، بقدر ما يثير سخطها خنوع بعض النساء، أو معظمهن، واقتناعهن بفكرة دونية المرأة المفروضة من بعض الذكور.

هل ينبغي أن يصعد على منبر كل قرن نبي أرضي، مثل الطاهر الحداد، ليعلم المرأة، لا فقط حقوقها وإنما أيضا كيفية قبول تلك الحقوق والاستفادة منها.. ليقودها إلى الجنة بالسلاسل؟

كم تحب ذاك الرجل الرسول، كم تقدره. لو كان على قيد الحياة لكان الرجل الوحيد الذي تقبل بأن تنحني أمامه بإجلال وتتبارك بيده تلثمها عشرين ألف لثمة حمدا لعشرات السنين الضوئية التي اختزلتها المرأة التونسية من عمر الكفاح بفضل أفكاره الثورية.

كيف لرجل مثل الحداد أن يقفز على حاجز ذكورته.. حاجز شعبه.. حاجز عصره ويمضي كفرس مجنون.. ضد التيار.. يسابق الزمن.. ويطالب بأعلى عقيرته بمساواة المرأة مع الرجل في الحقوق والواجبات.. بحق المرأة في التعليم.. بحقها في العمل.. بحقها في أن يكون لها كيان مستقل.. هل كانت له أدنى مصلحة شخصية في ذلك؟

أليس هذا منتهى الرجولة.. أن يتجاوز الرجل ذكورته.. أن ينتصر على هوسها خدمة للفكرة.. للمبدأ..

كانت المبادئ التي نادى بها فكرا خالصا نابعا من شخصية مصقولة.. متحررة.. رافضة لسياسة القطيع..

سياسة الأغلبية. .لم يكن من أولئك الذين ينزوون في عتمة غيران عمائمهم يحيكون حول أمخاخهم أغلالا عنكبوتية من المحظورات.

ألا يعلمون أن العقل إذا بقي عاطلا فالأحرى أن يلقى به، ومن المستحسن مع صاحبه، في أقرب مصب للفضلات البشرية؟

في مسألة تحرير المرأة، كان الطاهر الحداد العقل المدبر والحبيب بورقيبة رجل التنفيذ الحكيم. لهما معا الفضل في أن تكون نقطة البداية لمواصلة مشوار تثبيت حقوق المرأة في تونس هي نقطة تحلم العديد من نساء الدول العربية بأن تكون خط النهاية لنضالهن من أجل الحرية والكرامة.

أما في مسألة مساواة المرأة بالرجل فالأمر مختلف. هذا ما تحرص آمال على تأكيده «كيف تريدين أن أعود إلى العيش في بلد ما زال يرسخ دونية المرأة ؟ هل يعقل أن نتحدث عن مساواة بين المرأة والرجل في بلد يعطي القانون فيه للذكر من الميراث مثل حظ الانثيين».

هل يعقل أن يكون ذاكر يرغب في التشفي منها مثلما فعل سي صلاح، هل يعقل أن ينقلب عشقه لها إلى حقد؟

إن كان نوى إصابتها بسهم الانتقام، فلعمري قد أصاب المرمى. .

كان مكتبها بحق مملكتها الصغيرة. تخال نفسها أميرة كلما دخلته. سلطان الكتابة يجعلها تحمل قلمها صولجانا وفكرها تاجا أغلى من الذهب والماس. تشعر

كلما كتبت مقالا أو أتمت بحثا، بأن روحها تجاوزت سخافة سجن الجسد لتحلق بعيدا عن بني البشر آلاف السنوات الضوئية، بين الملائكة والرسل والقديسين وبين من رحل من الأدباء والفنانين والمبدعين. بين من رحلوا بأجسادهم. ولكنهم ظلوا أحياء بأعمالهم. لأنهم بلغوا مرتبة الخلود في الذاكرة الجماعية. ألا يجوز اعتبار المبدعين- لو تعلّق الأمر بالخلود- أنصاف آلهة؟

كيف قبل سي شريف بالأمر. هو الذي يكن لها المودة والاحترام. هل اشترى ذاكر سكوته بالمال؟ يبدو أنه عاد من أمريكا مثقلا بالدولارات.

انتابها إحساس غريب.

أهذا ما أحس به أجدادنا حين اغتصب المستعمر الفرنسي أراضيهم وانتهك حرياتهم، وجعلهم غرباء في وطنهم؟ كان متخفيا خلف قناع الحماية، بينما كان يمتص ثروات البلاد ويتلذذ بمنابه بعدما قسم قطعة الحلوى مع حلفائه؟

أهذا ما أحس به الفلسطينيون حين أطردهم العدو الصهيوني من مزارعهم وأضرم النيران بقراهم وأقام على رمادها وعلى أشلاء الشهداء الأبرار صروح مستوطناته؟ لم يكفه ذلك بل طفق يشن عليهم حروبا عشوائية ومجازر واغتيالات تستمر إلى يومنا هذا. ونحن في ظل القرن الواحد والعشرين والألفية الثالثة بعد الميلاد. في عصر المواثيق الدولية المكرسة لحقوق الإنسان وحق الشعوب في تقرير مصيرها.

أهذا ما يحسه اليوم شعب العراق وهو يرى «الدراكولا» الأمريكي يمتص بنهم ثرواته البترولية ويدنّس قداسة

مساجده ويطمس كنوز تراث بلاد الرافدين بعد أن كانت آمنة في متاحفه ومكتباته، التي كانت قبلة الزوار والباحثين من المغرب إلى المشرق. كل ذلك تحت برقع القضاء على الإرهاب و إرساء الديمقراطية بدول الشرق الأوسط؟

لم يكفه ذلك بل زرع عملاءه ألغاما تنشر الفتن بين الإخوة في الوطن. أشعلها حربا أهلية ثم انحسر إلى الخلف يصور بكاميراته أبناء العم يتقاتلون ويشرب مقهقها نخب انتصاره الملطخ بدماء الأطفال والمدنيين.

أهذا ما أحس به من تبقى من أهالي قرية بنت جبيل في جنوب لبنان بعد أن دكت قنابل بني صهيون ديارهم وخطفت نور الحياة من رضع وأطفال نائمين في أحضان أمهاتهم باسم حرب لا طعم لها ولا رائحة؟ مواجهة غير متوازنة القوى بين سرب طائرات مقاتلة ومدنيين أبرار لا يطمحون إلا إلى الحياة.

الأدهى من ذلك والأمرّ أن كل العالم يتفرج في سكون الموتى.. كل رواد حقوق الإنسان يشاهدون المذابح وهم يغوصون في دفء أرائكهم الجلدية الوثيرة، يقرمشون حبات الذرة المقلية ويمضغون شرائح اللحم الفاخرة وكأن شيئا لم يكن.. وكأن ما تراه أعينهم ليس سوى مشاهد من فلم أمريكي عادي من أفلام العنف الدامية القبيحة التي تملأ رفوف مكتباتهم عوضا عن كتب الأدب والشعر والفنون.

كانت تعلم أنها تبالغ وأن نكبات تلك الشعوب أعمق بكثير من أن تقارن بأزمتها. ولكن حساسيتها المفرطة جعلتها تعيش في تلك اللحظة معاناة تشبه معاناتها.. أو

لعلها استحضرت، لاشعوريا، آلام البشر لتهون عليها آلامها. فما يكون وجع المرء أمام أوجاع الإنسانية؟

أدركت أخيرا سيارتها. أحست بالبرد يخترق عظامها بعد أن بللت مياه الأمطار قميصها القطني الداخلي. فتحت المذياع كانت تريد أن تنسى قليلا أزمتها.

تحدث المذيع عن الأزمة المالية والاقتصادية التي تعيشها الولايات المتحدة الأمريكية والتي جرفت معها العديد من دول العالم. شبهها كثيرون بالأزمة التي عرفتها سنة 1929. يبدو أن أزمة سنة 1929 تركت المشعل لنكسة سنة 2008.

بدأت هذه النكسة بأزمة عقارية ومالية وانتهت بإفلاس بعض البنوك الأمريكية العملاقة، الأمر الذي دفع الدولة في أمريكا وانقلترا إلى التدخل لتأميم البنوك المفلسة بشراء جزء من أسهمها وذلك لتوفير السيولة المفقودة.

شيطان التأميم في معبد الرأسمالية. «شبح الدولة المنقذة» يحوم حول أنقاض سوق البورصة من «وول ستريت» إلى طوكيو. أسد الرأسمالية المتطرف، يصفع في عرينه.

تنبأ المختصون بأن الآثار السلبية لهذا الزلزال المالي ستدرك معظم دول العالم وستتواصل على مدى عشرات السنين. نتيجة محتومة للعولمة. تلك التي تقرب البشر في مصالحهم وأفراحهم وفي أزماتهم ومآسيهم أيضا. ألم يصبح العالم قرية صغيرة بفضل تطور وسائل الاتصال؟

لم تكن تلك الأخبار لتخفف من صدمتها. صحيح أن الأزمة بدأت في أمريكا ولكن ما يمس أمريكا يمس كل العالم، لأن أمريكا في كل مكان.

ولكن إلى الجحيم كل تلك الأنباء. هي، تلك المثقفة العطشى دوما إلى المعرفة، إلى الأخبار، إلى العلم، إلى معرفة كل ما يحدث حولها في العالم بأسره من شرقه إلى غربه. لا تعلم ما يحصل بالمجلة ولا حتى ما يدور بداخلها هي، نجلاء..

مر الوقت ببطء وهي تقود سيارتها متجة نحو شقتها. انتابها ضيق شديد..

غيرت المحطة الإذاعية. تناهت إلى مسامعها أغنية أنا مريض، Je suis malade للمطرب الفرنسي «سارج لاما». لم تتمالك نفسها. انفجرت في ضحكة مجنونة. ضحكة ذات طعم غريب.

4

فتحت عينيها على وقع دقات الساعة الحائطية الخشبية الضخمة، المعلقة وسط قاعة الجلوس بشقتها الصغيرة في منطقة المنار بالعاصمة، معلنة حلول التاسعة. عجيبة تلك الحياة التي تولد من ذلك اللقاء الأبدي الغريب بين عمود من الأبنوس موشى بالفضة وكتلة من الميكانيك.

حياة تعد على البشر ثوانيهم.. دقائقهم.. إلى أن تأتي ساعتهم. حياة تقتل ولا تموت.. لا تحب الساعات.. ولا مرور الزمن. لكن تلك التحفة من الأبنوس أسمى من ذلك بكثير. أهدتها لها والدتها تذكارا من مكة المكرمة عندما زارتها في موسم الحج منذ سنتين. صورتها بالحجاب الأبيض قابعة على الطاولة الصغيرة، تنظر إليها وتبتسم بحنان.

– ليتك تأتين معي إلى الحج يا نجلاء، إنه النور السرمدي، إنه معين المغفرة الذي لا ينضب. سأعينك على المصاريف، أعلم أنك بصدد تسديد قرض الشقة.

– ولم لا يرافقك بابا كامل؟ تعلمين جيدا أن الذهاب إلى الحج ليس مدونا على لائحة مشاريعي، على الأقل تلك قريبة المدى.

تنهدت ماما زبيدة.

– للأسف يرفض الحديث في هذا الموضوع. لما ألححت عليه قال لي: «حسبك أنني أحترم إرادتك ولم

أقف أمامها حجر عثرة. ثم إنك ستذهبين مع مجموعة من خيرة الرجال والنساء، فلا مبرر إذن للخوف. أنت تعلمين موقفي من الحج، أحيانا أحج مرتين في الأسبوع وأنا جالس هنا في قاعة الجلوس أمام المدفأة. لا أرى أي موجب للتنقل آلاف الكيلومترات لأداء مناسك بوسعي القيام بها وأنا هنا في مكاني».

لم يفهم أنها ليست مسألة خوف. إذا رافقني أحدكما فستكون سعادتي مضاعفة. ثم إنني لست معتادة على السفر مثلكما. يهديك الله لم لا تأتين معي.

– ماما كم عمرك الآن ؟

– إحدى وخمسين سنة. ولكن لم هذا السؤال؟

– حين أبلغ هذا العمر سأقرر إن كنت أريد الذهاب إلى الحج أم لا.

تنهدت وهي تنظر إلى عيني ماما زبيدة. . مثل مدمنة. . تتناول جرعتها الصباحية من الحنان. كيف يعقل أن تنقل مجرد ورقة، بدقة متناهية ووفاء يتحدى الكمال، مشاعر بذلك القدر من العمق.

إن أكثر ما يثلج صدرها هو أن أمها حققت رغبتها في الحج إلى بيت الله الحرام قبل أن يوافيها الأجل المحتوم هي وبابا كامل بسبب ذلك الحادث اللعين.

كان ذلك الأرعن يقود سيارته بسرعة جنونية. لم يحترم واجب الوقوف أمام الضوء الأحمر. صدمت سيارته سيارة والدها من الجانب الأيسر. توفي بابا كامل في الحين. أسلمت ماما زبيدة الروح بعد ثماني ساعات حين استنفذ الأطباء كل الجهود لإنقاذها.

هجرا هذا العالم إلى الأبد. رحلا بسرعة. لم يتركا لها الوقت لتقول لهما كلمة وداع. . تقبل جبهتيهما. . تخبرهما كم تحبهما. . تأخذ كل واحد منهما بين ذراعيها وتضمه إليها بشدة فيحس بعمق شعورها. . تقبل وجهه. . . تمرغ الوجه بشعرها وتشبع الروح بعطرها. .

كان عزاؤها الوحيد في فترات الضيق، قناعتها بأنهما لم يتألما، بل رحلا في سلام.

لم تجد في بهو المستشفي أمام غرفة الإنعاش سوى أحضان شقيقها وليد تهتز فيهما على وقع شهقات ألمها وزفرات حزنه.

يومها التقت دموعهما لأول مرة وتعانقت في أقتم محطة من محطات الألم التي لا تنتهي. .

علما فيما بعد من الشرطة أن ذلك المتهور طالب بكلية الهندسة المعمارية اسمه أكرم، لا يتجاوز العشرين ربيعا، كان يسوق تحت وطأة مخدر «الزطلة». أفلته الردى لكن حالته كانت خطرة.

حدث ذلك منذ سنة. تتالى أمامها شريط الصور والأحداث وكأنها حصلت بالأمس.

علمت منذ ستة أشهر من زميل والدها، الأستاذ إسماعيل بن مراد الذي أخذ على عاتقه نيابتهما أمام القضاء، في القضية الجنائية المتعلقة بحادث والديهما، أن المتسبب في الحادث لم يحضر الجلسات المعينة بالمحكمة.

علمت أيضا أن الشرطة تواطأت مع ذويه الأثرياء ولم تعرضه على التحاليل اللازمة للوقوف على نسبة الكحول

أو المخدر في دمه. أما النيابة العمومية فقد أحالته على المجلس بتهمة القتل على وجه الخطأ إثر حادث مرور دون أن توجه إليه تهمة السياقة تحت تأثير مخدر، لأن ملفه كان خاليا من التحاليل. تم إيقاف الشاب بعد أن غادر المستشفى، لكن نظرا لتدهور حالته الصحية والنفسية أطلق سراحه بعد أسبوعين فقط أمضاهما بسجن الإيقاف.

كان ذلك فوق طاقة احتمالها. كانت تنتظر اعتذارا من ذلك السفاح، أو على الأقل تعبيرا منه عن ندمه وأسفه عما حصل. اتصلت بالأستاذ إسماعيل. عرفت منه عنوان الشاب. ضغطت على الجرس يمين باب الفيلا الفخمة ذات الطابقين في الحي الفاخر بالمنزه السادس بتونس العاصمة.

سألها صوت امرأة من الأنترفون عن هويتها. ادعت أنها زميلة أكرم في الجامعة، جاءت تطمئن على حاله. فتح الباب الحديدي. صعدت المدرج الدائري من الرخام الوردي.

فتح الباب الكبير من الخشب الأصيل. أطلت امرأة سمراء بدينة في مقتبل العمر ترتدي مئزرا. رحبت بها وأدخلتها إلى قاعة الجلوس. هناك استقبلتها كهلة شقراء أنيقة لا تتجاوز الخمسين ربيعا وقد غيمت في زرقة عينيها الجميلتين سحب قاتمة من الأسى. تموج صوتها بين الحزن والامتنان وهي تشكرها على زيارتها. علمت أنها آسيا، والدة أكرم. دعتها إلى الجلوس والانتظار برهة ريثما تعلم ابنها أكرم بقدومها.

كانت قاعة الجلوس شاسعة مؤثثة على أحدث طراز. لفتت انتباهها بعض الصور في إطارات من الفضة الخالصة موضوعة على رف حائطي من الخشب الغليظ الداكن. فهمت منها أن أكرم وحيد والديه.

أيقظها من تأملاتها، وقع أقدام السيدة آسيا نازلة على الدرج المرمري. لم تتم النزول. دعتها إلى الصعود. تبعتها وهي لا تفهم سبب عدم نزوله.

كانت تعلم أنه تعرض إلى صدمة عنيفة برأسه تسببت له في نزيف داخلي تم إنقاذه منه، ولكنه لم يصب بأي كسر وغادر المصحة بعد أسبوعين من العلاج. استعاد الغضب مكانه في صدرها. سمعت عزفا على البيانو، قطعة من بحيرة البجع لتشايكوفسكي. .رتبت أفكارها وأعدت ما ستقوله لذلك الجبان. توقفت أمام غرفة مفتوحة. دعتها إلى الدخول ثم غابت.

كان جالسا يداعب، بأصابع طويلة بيضاء تكاد نعومتها تكون أنثوية، «بيانو» أبيض مذيلا. شعره الأشقر الداكن يتدلى ليغطي عنقه ويكاد يلامس كتفيه العريضين. بدا فارع الطول وذا جسم متكامل، رغم أنه كان جالسا. سألها دون أن يلتفت إليها:

- من أنت؟

- هلاّ التفت إلي وأنت تحادثني. كان في صوتها حنق لم يسعها احتواؤه.

- وما فائدة ذلك؟ أجابها. .ثم التفت إليها ببطء.

على جبهته قريبا من عينيه أثر جرح عميق لم يلتئم بعد، لكنه لم ينل من وسامته الفائقة ونقاء زرقة عينيه

الفيروزية. نظر إليها. لم ذاك الفراغ بعينيه؟ خيل لها أنه يتطلع إلى شخص وراءها.

– حسنا لا تريدين أن تقولي اسمك. .صوتك لا يذكرني بأحد، صفي لي نفسك وسأحزر من أنت. قال لها بسخرية قاتمة.

لا تدري من هول الصدمة إن كان نبضها توقف للحظات أم أن الزمن تجمد.

لم تجبه. غادرت الغرفة دون أن تلتفت وراءها. استوقفتها والدته بأسفل الدرج. هدأتها. سجلت في كنش صغير اسمها ورقم هاتفها. ألحت عليها بضرورة الزيارة ثانية. أعلمتها أن أصدقاءه قلت زياراتهم وأنه بات في حالة نفسية مزرية بعد فقدان بصره وتسببه في موت شخصين إضافة إلى قضائه أسبوعين بالسجن وهو في تلك الحالة.

أخبرتها أنه لا يدخّن وأن أحد أصدقاءه المقربين أسر إليها أنه يوم الحادث مرّ بأزمة نفسية حادة لم يفصح عن سببها. عرض عليه صديق آخر أن يدخن شيئا ما ينسيه همومه. لأول مرة يستهلك المخدّر. كان يجهل مدى خطورة تأثيره.

نفضت عنها الغطاء كمن ينفض عن ذهنه غبار الذكرى. لماذا تعاودها الآن تلك الهواجس المؤلمة. أسرعت إلى المطبخ. كانت بحاجة لقهوة كي تفيق، وللموسيقى كي تبدأ بالأمل فجر يوم جديد، كي ترى الدنيا كما يحلو لها أن تراها بلون وردي. ترفض أن تستسلم للحزن.

كانت ماما زبيدة تقول لها دائما «إياك واليأس يا عزيزتي. ومهما كان مصابك فلا تيأسي من رحمة الله

فرحمته وسعت ملكه، وتذكري أن لكل داء دواء ولكل مصيبة رجاء».

لم تكن والدتها شديدة التدين ولا متعصبة. كانت فقط شديدة الإيمان. كان لها ذلك الإيمان الحدسي النابع من الوجدان. أما والدها فكان مسكونا بإيمان عقلاني. يرفض ما يسميه إيمان العجائز. يعمل التفكير في كل شيء. كان من هواة «رسالة الغفران» و«اللزوميات» لأبي العلاء المعري، ويعتبره رائدا للفكر سابقا لزمنه، عاصر خطأ القرن الرابع للهجرة. كان يتسلى كثيرا بفكرة الحج الروحي ويتندر باللوحة الكاريكاتورية التي صور فيها أبو العلاء معتقدات بني عصره حول الموت والبعث والجنة والنار.

اكتشفت ذلك الصباح، صندوق الرسائل الفضي في أعلى رف من خزانة الثياب الخشبية البيضاء في غرفتهما. كان عمرها تسع سنوات. استغربت عددها الهائل. تناولت الصندوق، نزلت من الكرسي وجلست على فراشهما المغطى بملحفة وردية مطرزة بخيط أبيض. أفرغت محتوى الصندوق على الفراش. طفقت تعد الظروف. واحد. اثنان. ثلاثة. ثمانية وثلاثين. تناولت أولها وفتحته.

«حبيبتي الغالية زبيدة، أما بعد، فلا يسعني أن أعبر عن عمق اشتياقي وحنيني إليك. أرى النجوم فأذكر جمال عينيك وأرى القمر فأذكر وجهك الصبوح. إنها آخر سنة دراسية لي في السوربون وستكون حتما أطول سنة أقضيها في باريس.

صور الصائفة الأخيرة لا تزال في مخيلتي لا تفارقني ليلا نهارا. نعم قلتها لك ولكنني سأقولها ثالثة ورابعة وعاشرة و.. إلى ما لا نهاية.. أحبك منذ وقعت عيني عليك لما أتيت لزفاف سماح.

ليلتها حمدت الله أن عائلتي العروسين اختارتا الطريقة العصرية لإحياء زفاف شقيقتي. لو تم الزفاف بصورة تقليدية لما أسعدني القدر بلقائك والوقوع في غرامك ثم خطبتك في ظرف أسبوعين. أتذكرين لما التقت نظراتنا في المرآة العاكسة الأمامية لسيارتي عندما أوصلتك أنت ووالدتك وشقيقك إلى منزلكم بتوصية من صديقتك سماح.

خفضت عينيك من شدة الحياء، وذبت أنا من شدة الولع بك. لعل شقيقتي تعمدت إثارة لقاء بيننا لأنها تعرف ذوقي في النساء. لما التقيت بعينيك العسليتين، عرفت أنك من ستكونين زوجتي.. حبيبتي زبيدة، لست شاعرا ولكن هذا ما جادت علي به قريحتي من أبيات عساني أنجح في وصف حبي.. حبيبتي لك قصيدتي «طوفان الحب»:

ما كنت أحلم قبل لقاك
بطوفان الحب الوردي
كيف أتصور عمق هواك
وهو العطاء بلا حد؟
حين رأيتك أول مرة
أحسست بعينيك بلدي
رقصت ساعتها أعيننا
رقصات الحب الأبدي

يومها ألفى ألف سبيل
العشق إلى روحي وجسدي».

بعد قصة حب كبيرة دامت سنة، تزوجا بمجرد تخرج والدها. قرأت كل رسائلهما وأعادت قراءتها. كادت تحفظها عن ظهر قلب. كانت تستغل غياب والديها، وتسارع إلى غرفة النوم في غفلة عن المعينة المنزلية، وتقرأ. .حفظت كل الأشعار التي كان بابا كامل يرسلها. كانت قصيدتها المفضلة «شموس الليل» التي يقول فيها بابا كامل مناجيا حبيبته البعيدة:

عندما يأتي المساء
ويرخي الظلام سدولا
إلى ربى الخيال أمضي
ولحلمي أرتجي السبيل
فأراك قربي وأراك لي
ويكون ما كان مستحيلا
وللعاشقين كنت الدليل؟
أنت المنار لذوي الغرام
لمّا الشموس تجفو الأصيل؟
أنوار شعت بسواد ليلي
ونهاري ظل بالضياء بخيلا
دع الألوان إن السواد
لأحرى بأن يعد جميلا».

أتقنت في تلك الفترة استعمال القاموس. كانت قصة حبهما، تشعرها بأمان، تملؤها غبطة وتجعلها أيضا تتوق إلى عيش قصة مماثلة عندما تكبر.

ثم تغير كل شيء..

لماذا لم يبق كل شيء جميلا..بسيطا..كما كان؟ لماذا كان عليها أن تكتشف الوجه الآخر للعملة، وفؤادها لا يزال يسبح في خرافات الأميرة النائمة والحب الأبدي..

وضعت طاهية القهوة فوق أصغر قرص من جهاز الطهي، بعد أن عمرتها بالقهوة المبشورة حديثا وبالماء المعدني. تركتها فوق نار هادئة. «ليكون ما نعده لذيذا يجب أن نعطيه الوقت»، هكذا تقول ماما زبيدة. بلوغ اللذة هو إذن رهين الوقت.

كم تستمتع برائحة القهوة تفوح لتغمر أرجاء الشقة معلنة انتصار النور على الظلام، انتصار الحياة على الموت. أليس السبات موتا مؤقتا؟

تعوّدت على وداعته وحنانه. كانت المرة الأولى التي ترى فيها شرر الغيظ يتطاير من عينيه، المرة الأولى التي يستعمل فيها العنف. لم يسبق له أن رفع يده على أحد. كان مسالما دومًا.

بقيت في مكانها دون حراك تجتر مرارة الصفعة. ظنت من نظرات الحنق في عينيه أنه سيواصل ضربها. لكنه لم يفعل.

حين همت بالانصراف، تفطنت إلى ماما زبيدة واقفة بمدخل قاعة الجلوس. تبعتها أمها إلى غرفتها لكنها أغلقت الباب ورفضت فتحه رغم إلحاحها.

بعد تلك الصفعة التاريخية، تكررت بينهما بعض المناوشات العقيمة. انحسر هجومه أمام نظرات الوعيد بعينيها. ظل باب الحوار بينهما مقفلا لعدة سنوات. باتت علاقتهما سطحية، لا يتبادلان الحديث إلا عند الضرورة. كل منهما يتفادى لقاء الآخر.. يتجاهل وجوده.

صب بابا كامل جام عنايته..على وليد. صار يشمله برعاية فائقة..ويراقب كل تصرفاته. شعرت في البداية بالغيرة ولكنها تعودت على الوضع بمرور الأيام. حرصت على أن تمضي معظم أوقاتها خارج المنزل، سواء في الكلية أو في المقاهي ومواطن الترفيه مع الأصدقاء. تحتمي بغرفتها بمجرد العودة إلى المنزل وتقرأ. اشترت الكثير من الكتب واستعارت الكثير. كان عليها أن تملأ الفراغ الذي أحدثه خروج بابا كامل من إقليم حياتها اليومية. كان عليها أيضا أن تملأ تلك الساعات الطويلة التي تمضيها في غرفتها دون أن يداعب النوم أجفانها.

اليوم سبت. لن تأتي خالتي خديجة لتنظيف الشقة وطهي الطعام. استأذنت منها لعيادة الطبيب لأنها أصيبت بزكام حاد. كانت معينة أمها المنزلية. تجاوزت الخمسين من العمر لكنها لا تزال قوية البنيان. احتفظت بها لأنها اعتادت عليها، ولأنها بعد اثنتي عشر سنة من الخدمة لدى آل بن منصور باتت جزءا من العائلة. تتسلى

بمحاورتها لقطع الأثاث والمواعين. ثرثرتها الساذجة تملأ مرحا وحدتها الصباحية قبل الذهاب إلى العمل. حتى تذمرها من عسر المعيشة محبب لديها.

ابنها البكر «حمادي» لم يوفق في الدراسة وهو الآن عامل يومي في ميدان البناء، يشتغل يوما وينام عشرة. لا يكاد يحظى بما يسد رمقه.

ابنتها «فتحية» أخفقت ثلاث مرات في مناظرة الباكالوريا. بعد أن حفيت رجلاها من أجل الحصول على كرسي خلف آلة كتابة، اضطرت لقبول مقعد خلف آلة خياطة في مصنع نقله من «باليرمو» إلى منطقة قصر سعيد بتونس العاصمة، مستثمر إيطالي ذاع صيت شره واستغلاله عرق الكادحين. عملها شاق وأجرتها لا تكاد تكفي لتوفير جهاز العرس.

أما آخر العنقود «الصادق»، فقد تحصل على الأستاذية في التاريخ والجغرافيا منذ ست سنوات. خاض مناظرة «الكاباس» ثلاث مرات، في كل مرة ينجح في الامتحان الكتابي ويرسب في الشفوي.

يعمل الآن صبي بقال في أحد الدكاكين المجاورة مقابل ثلاثة دنانير يوميا، لا تكفي حتى لشراء علبة التبغ وتناول قهوة بمقهى الحومة مع بقية زملائه «العاطلين من ذوي الشهادات العليا».

أضافت القهوة إلى الحليب الساخن مع ملعقة صغيرة من السكر. ترشفتها ببطء على نغمات «زوروني كل سنة مرة» لذات الصوت الملائكي. تسري في عروقها حرارة القهوة الساخنة فتدفئ روحها وتنشر فيها نور الطمأنينة.

لحظات على قصرها، معين من السكينة والفرح الطفولي تنهل منه كل يوم جرعتها الصباحية التي تبعد عنها مرض الوحدة وغول الكآبة.

اشترت تلك الشقة منذ ثلاث سنوات، بعد طلاقها. حبها للحرية انتصر على حبها لوالديها.

بعد انفصالها عن منير، رفضت الرجوع إلى نقطة البداية. كانت على قناعة أن رجوعها للعيش معهما سيعمّق أخدود فشل تجربتها في الزواج. آثرت أن تعيد بمفردها ترتيب قطع «البازل».

أرادت أن تثبت للجميع أنها قادرة على تحقيق كيانها بعيدا عن أبويها، دون رجل.

«تغيير قنينة الغاز كان أهم مبرر لزواج الفتاة سابقا، مع اجتياح الغاز الطبيعي لكل البيوت لم يعد هناك سبب مقنع لتحمل عذاب الفرجة على مباريات كرة القدم». آمال هي الوحيدة التي شجّعتها على اتخاذ القرار.

تألمت ماما زبيدة كثيرا لطلاقها. حاولت ثنيها عن عزمها. لم تجد فيما بينهما من مشاكل، تعتبرها سطحية وتافهة، الأمر الذي يستوجب الانفصال. كان منير بالنسبة إليها نعم الصهر لأنه من عائلة عريقة ميسورة معروفة بدماثة الأخلاق وحسن السيرة، فضلا عن ذلك لم يكن منير عنيفا ولا بخيلا.

هل ينبغي أن تسيل الدماء وتتعفن الألسنة وتتطاير الأسنان حتى يصبح قرار الطلاق مشروعا ومبررا؟ قد يتألم المرء من عدم الانسجام أو من جملة قيلت في

سياق حديث أو من كلمات. .إشارات. .إيعازات. . تكررت أكثر من اللازم. وقد يكون ألمه هذا أخطر من أي عنف بدني أو لفظي. لا أحد يختار الطلاق، الكل مجبر عليه حتى من رغب فيه، لأنه اعتراف نسبي بالفشل قبل أن يكون قرارا.

لم تشعر بالوحدة بعد انفصالها عن منير بل أثناء فترة زواجها منه. الوحدة ليست أن تكون وحدك وإنما أن تشعر بالغربة مع من حولك حتى وإن كان من المقربين. كان معها طوال السنتين التي جمعتهما تحت سقف واحد، لكنه لم يحل أي لغز من ألغازها،لم يفهم قانون لعبتها،لم يفهم نجلاء أو ربما لم يحاول.

– أريد أن أتزوّجك.

قالت له عندما جلسا على أحد الأرائك العمومية، قبالة نصب «نلسون» في ساحة «ترافولقر سكوار» في لندن. أربعة أسود برونزية ضخمة، رابضة أسفل النصب. تراقب بنظرات ثاقبة حركة الجالسين والمارة.

كانا يتناولان «ساندويتشا إنجليزيّا»، من تلك التي تبتلع دون مضغ، لأنها صنعت لتسد رمق الجائع لا ليتلذذ بها.

أحاط بهما فيلق من الحمائم تستدر بعض الفتات. لا بد أن تلك الحمامات اللندنية صلت ليلتها على أحد سطوح كنيسة «سان مارتان» لتشكر الله على كرمهما الحاتمي.

في ذلك اليوم لم يكن قد مر على لقائهما أكثر من شهر. صحيح أنهما استنفدا أبجدية التعارف من ألفها إلى يائها. لكن لم يكن ذلك سبب رغبتها في الزواج منه.

لم يكن السبب أيضا وسامة منير الصارخة، ولا انسجامهما الجسدي في الأوقات الحميمية، ولا إحساسها بالغربة في تلك الفترة التي قضتها في مملكة بلاد الغال، ولا حتى استعدادها الفطري، كأي فتاة تجاوزت الثامنة والعشرين، لبناء أسرة وولادة أطفال.

كل ما في الأمر هو أنها قررت أن تمسك بزمام مصيرها، أن تصنع قدرها بنفسها. منذ سنوات الصبا أقسمت بأن تكون هي من يبادر بخطبة رجل حياتها. لا وجود لأي سبب مقنع يبرر أن ينفرد الرجل دائما بحق المبادرة في اختيار امرأة حياته.

ربما.. أيضا.. لم تعد ترغب أن يحتويها مرة أخرى رجل..

انفجر منير ضاحكا والسعادة تكاد تقفز من عينيه لتحلق مع الحمائم اللندنية وقال لها مازحا:

– لأول مرة تخطبني فتاة في مثل جمالك وذكائك وخفة روحك، لذا سأقبل دون تردد.

مرّ على انفصالها عن ذاكر بضعة أشهر. عرض عليها سي مصطفى مدير صحيفة «الفجر» السفر إلى لندن لإجراء تربص لدى إحدى المجلات اللندنية، مدة ثلاثة أشهر، واغتنام الفرصة لتدعيم مستواها في اللغة الإنجليزية.

هل أحس سي مصطفى بما كانت تشعر به من ضياع في تلك الفترة؟ هل طغى لون الحزن والفراغ على ألوان الزينة التي أمعنت في استخدامها آنذاك كوسيلة للتنكر؟

قبلت العرض دون تردد. كان وطء الذكرى أثقل من أن يتحمله كيانها الهش. قد يقدر المرء على إتلاف الأشياء ولكنه عاجز عن محو الفكرة. البشر لا سلطان له إلا على الملموس.

كانت تشعر به في كل شيء وفي اللاشيء. تشتم عطره في بخار ينبعث من فنجان قهوة. .تسمع صوته في خرير الماء يملأ حوض الحمام. .و ترى طيفه على واجهة محل لبيع الثريات. .

كان في كل مكان، لذا كان عليها أن تغير المكان. .أن تنأى آلاف الأميال عن الأركان والزوايا التي يطيب فيها لعنكبوت الذاكرة حبك خيوطها السوداء لصيد زفرات الحسرة والشجن.

كان منير دائم الإطراء نحوها، دائم التغزل بها، لكنه لم يتغزل يوما بعمق أفكارها ومبادئها وبحوثها ومقالاتها الصحفية وخياراتها الفنية.

هو أستاذ جامعي في الاقتصاد والتصرف. .ذا تكوين علمي صرف. كان يعد أطروحة الدكتوراه في الاقتصاد في إحدى الجامعات الخاصة هناك. كان أول لقاء لهما داخل «ذو ناشيونال غاليري» اللندني، واحد من أكبر متاحف اللوحات في العالم.

في ذلك الفضاء الذي تتغازل بين أروقته، أو لعلها تتراشق نظرات الحسد والغيرة، لوحات العمالقة

الخالدين. . «رينوار». . «فان غوغ». . «دافنشي». . «مونيه». . «رامبرانت». . وغيرهم. .

التفتت لصوت أنثوي ينادي اسمها بحرارة. سارة، إحدى صديقاتها من أيام المعهد. لم تكن بمفردها، معها شاب وسيم فارع الطول، منير، شقيقها الأكبر. كانت تقضي في شقته اللندنية أسبوعا للسياحة وزيارة المعالم التاريخية والفنية. كانت حديثة التخرج من المعهد العالي للفنون الجميلة.

وجدها الشقيقان أمام إحدى لوحات «عباد الشمس» للرسام الهولندي «فان غوغ» تتأملها متسائلة عن سبب اختياره تلك النبتة ليرسمها في عدة لوحات.

أجابتها سارة - وكأنّ السماء أرسلتها - بأن الآراء اختلفت حول الموضوع، فهناك من يعتقد أن الرسام مر بفترة تفاؤل مما جعله يرسم تلك النبتة التي ترمز من خلال لونها الأصفر إلى السعادة. وهناك من يرى، على العكس، أن «فان غوغ» كان شديد التفكير في مسألة الحياة والموت، وهذا ما جعله يرسم النبتة التي تجسد أكثر من غيرها دورة الحياة والموت، لذا تجده يرسم على نفس اللوحة، النبتة في أوج إشراقها، ثم في لحظة ذبولها.

أما هي فتعتقد أن السبب آخر. «فان غوغ» أراد أن يرسم العشق. . ولكنه معنى وليس مادة ولا يمكن تجسيده خاما على قماشة الرسم. عندها فكر في أجمل تجسيد للهيام. . العشق. . إلى حد التضحية. . إلى حد الفناء. بحث عنه. لم يجده لدى بني آدم. وجده في نبتة.

لم يصادف أجمل من عباد الشمس مثالا لعشق قاتل نادر الوجود.

أليس عباد الشمس عاشقا لخليلته الشقراء، مأخوذا بنورها وجمالها. تجده من فرط هيامه يرنو إليها ويتبعها أنّى تحركت واستدارت.. بقى كذلك حتى لا تفلت حبيبته من نظره ولو عشر ثانية.. إلى أن يذبل.. يجف.. ويفنى.. هل لمثل هذا العشق مثيل؟ لا تظن ذلك.

ابتسمت سارة.

– تأويل جائز نجلاء.. كل التأويلات ممكنة.. هذا هو الفن..

أعجبت يومها بثقافة سارة، وظنت أن منير في مستوى ثقافة شقيقته. اتضح لها بعد ذلك أنه لم يزر المتحف إلا لمرافقة سارة ومجاملة لها.

اكتشفت أيضا أنه لم يزر، في كون الثقافة الشاسع، سوى بعض قرى السينما الأمريكية التجارية.

بعد الزواج، حاولت أن تجعله يحبّ السفر. أهدته الكثير من الكتب التي تحبها. دعته إلى مشاهدة الأفلام التي أجمع النقاد على جودتها وعمق الرسالة التي تحملها. حرصت على اصطحابه لكل المسرحيات رفيعة المستوى.

لماذا كانت تراه بعيدا كلما حاولت الاقتراب منه أكثر؟ كانت فترة زواجهما نقطة اللقاء بين مصيرين يسيران في اتجاه معاكس.

لماذا كانا مرتبطين بوثاق الزواج تحت سقف سجن واحد؟ لماذا لم يحاول أن يدخل مملكتها؟ لماذا رفض

أن ينصهرا جسدا وفكرا؟ ألهذا السبب كانت تحس معه بوحدة خانقة؟

شربت ما تبقى في الفنجان جرعة واحدة. يجب أن تستحم وتغادر الشقة الآن. أسرعت إلى بيت الحمام. فتحت الحنفية بعد أن عدلت حرارة الماء. نزعت لباس النوم وألقت به فوق ملابسها المبللة بماء المطر. تكاد تسمع وشوشة طاقمها المبلل يشكو سوء معاملتها.

ليست عنيفة مع أثوابها بل على العكس هي شديدة العناية بها إلى حد الوسوسة. ما حصل استثنائي ولا يجوز أن تحاسب عليه. تعترف أنها نزعته بالأمس بقسوة وألقت به في أقصى ركن قبل أن تواري جسمها المثقل بأدران الخيبة في مياه الحوض المحترقة.

لكنه يعرف أنها تحبه فلطالما سلمته جسدها يلامسه ويلاصقه ويحتك بعطره إلى أن يصبح ملكا له. كل ما في الأمر أنها نسيت في لحظة غضب جامح أن الأثواب، خلافا للبشر، سريعا ما تنظف من دنسها.

تناصف الحوض امتلاء. أضافت رغوة استحمام معطرة بالياسمين. تركت جسدها العاري يستسلم لحرارة الماء. استرخت مستنشقة ذلك الأريج المحبب لديها، تركته يسافر بها إلى ربوع صباها.

كم تشتاق إلى تلك الربوع.

كانت تقفز وحدها فوق المربعات التي رسمتها بالطباشير، قرب شجرة الياسمين الكثيفة في حديقة منزلها مخاطبة صبية في مثل عمرها. تأتي أمها فتسألها مع من كانت تتكلم. تقول لها بكل بساطة «مع نفسي».

سمعت نغمات «طيري يا طيارة طيري..يا ورق وخيطان..».

كان كل شيء بسيطا..بريئا..ناصع البياض. كان وليد يجلس قربها على كرسيه الخشبي الصغير ويصفق ضاحكا كلما ألقت بقطعة الحجر خارج المربع.

تكبره بأربع سنوات لكنه كان يستمتع بمشاهدتها وهي تلعب.لم يكن يحب كثيرا ألعاب الصبية الخشنة. كم اشتاقت إليه. مضى أسبوع كامل دون أن تراه. سيأتي غدا، وعدها بأنه سيزورها يوم الأحد.

سرت في جسدها قشعريرة. فقد ماء الحوض حرارته المحببة لديها. سارعت بطلاء بدنها بصابونها الصيدلاني ثم بصابون الاستحمام السائل المعطر.

كانت ماما زبيدة متألقة الذكاء. في الخمسينات..في عهد سيطرت عليه ظلمات تقاليد متهرئة سمح لها والدها بأن ترتقي مراتب العلم والمعرفة درجة بعد الأخرى. لم تزل بها القدم مثل معظم أترابها. عندما بلغت الثامنة عشرة، تحصلت على شهادة الباكالوريا. تعرفت على كامل منصور في نفس السنة. وقعت في غرامه من أول نظرة. لما طلب منها الانقطاع عن التعليم أصيبت بصدمة كبيرة. حاولت أن تقنعه دون جدوى. استشارت والديها فتركا لها حرية الاختيار. ولما خيرها حبيبها بينه وبين الدراسة، اختارت الحب..

لم تندم ماما زبيدة على قرارها، هذا ما كانت تكرره دائما: «أنا سعيدة مع أبيك حبي الأول والأخير،لم

يتركني مفتقرة لأي شيء، ثم أنعم الله علي بكما، ملأتما علي حياتي وأنرتما وجودي..».

كان بابا كامل كثير السفر لأغراض مهنية. هي لم تنس تلك الليالي، في غيابه، لما كانت تغادر فراشها خلسة لتتدلل قليلا في دفء والدتها. أحيانا كانت تسمع، حين تقترب من غرفتهما، نحيبا خافتا مكتوما..تعود القهقرى بسكون، تتقوقع بين طيات غطائها، تتهدج بآيات الكرسي التي حفظتها عن أمها، لتطرد شياطين الظلام ثم تستسلم للنوم دون أن تعلم في أية غرفة ستحوم تلك الشياطين.

لم يكن ما سمعته وهي تدخل غرفتها ملتفة بقميص الحمام الأبيض ذي الطربوش.. نحيبا ولا وسوسة شياطين الظلام، بل دقات الساعة العاشرة صباحا، تحاول دون جدوى أن تطغى على نغمات « أنا لحبيبي وحبيبي إلي..».

أصاخت السمع فإذا بنغمة ثالثة تشوش عليها متعتها بأغنية فيروز. جرس الباب. هل غيرت خالتي خديجة رأيها. هرعت لتفتحه.

كان هناك بعتبة الباب..واقفا يحدق فيها وعلى وجهه ابتسامة ساحرة..وهي لا تزال ملتفة بقميص الحمام كأنها عضو من جماعة «كو كلوكس كلان».

5

دارت ببطء دورتين وهي جالسة بارتياح على كرسيها المكتبي الدوار ذي العجلات. أرادت وهي تدور أن تتأكد أن كل شيء استعاد مكانه بمملكتها.

اطمأن قلبها. كل فرد من حاشيتها استرجع خطته بعد أن حقق مكتبها استقلاله الداخلي.

حتى أصص الفخار المطليّة بألوان متنوعة، والتي ملأتها ترابا بنفسها، وزرعتها زهورا متعددة الألوان والأشكال، افتكت مكانها المعتاد في الشرفة المطلة على بحيرة تونس وعلى سطوح بعض المباني الفرنسية القديمة التي تملأ العاصمة.

قيل لها أن تلك البحيرة كانت تصل إلى باب البحر، المشرف على تونس العتيقة أو ما نسميه «البلاد العربي»، والذي كان في الواقع أحد أبوابها مثل باب الفلة وباب الخضراء وباب الأقواس وباب سعدون وغيرها.

لما حلّ الفرنسيون قاموا بردم جزء كبير من تلك البحيرة وأقاموا عليه صروحهم الإدارية والسكنية.

حتى الصورة العائلية التي تجمعها بوالديها ووليد استعادت منبرها على الطاولة. كانت في الثامنة من عمرها. أيام الطفولة الوردية. أين مضت تلك الأيام؟

تعشق شرفة مكتبها. فمنها تغزو الشمس كل صباح مملكتها غزوا منعشا يغمرها دفئا وأملا. ومنها اعتادت

أن تنظر إلى المارة، من حين إلى آخر، وكأنها ملكة تحيي رعيتها من شرفة قصرها.

دارت مرة أخرى. اتكأت برأسها على ظهر كرسيها . أغمضت عينيها.

– افتحي الباب أرجوك. يجب أن أفسر لك ما حصل. قال لها حين أغلقت في وجهه باب شقتها من وقع المفاجأة.

أعادت فتح الباب بعد برهة دون أن تنبس ببنت شفة. تركته يغلقه وراءهما، وانطلقت إلى غرفتها دون أن تلتفت إليه أو تدعوه للجلوس. أغلقت الباب. لم تكن خائفة منه بل من وحش يتخبط في أعماقها.

لم تتقن يوما لغة الرهبنة ولهجة الكبت. .تعشق لعبة الحب كأي امرأة صادقة مع ذاتها ومع جسدها. .لكنها تلعبها باتزان وتضع لها شروطا وقوانين أولها أن يكون الحكم فيها، حد أدنى من المشاعر واحترام متبادل بين الطرفين.

بلغا أوج عطائهما حين لعبا معا، هي وذاكر، وكانا دوما يتوجان انتصارهما بصرخة فرح حاملين بأيد متشابكة كأس النشوة القصوى.

كان الأمر مختلفا مع نذير رغم أن انسجامهما كان ملموسا. ربما لأن اتفاقهما الصامت منذ سنتين على أن يطعما من حين لآخر جوعهما الفطري كان بالنسبة إليها ناقصا. ينقصه عمق الأحاسيس من ناحيتها. تعتبره أكثر من صديق، لكن لم تستطع أن تحبه رغم أنها حاولت.

لو أينع حبه فيها لكان كل شيء أجمل. لكانت.. ربما.. قبلت طلبه الارتباط بها.

هل أن بذرة الحب لا تنبت بوجودنا القصير سوى مرة واحدة؟

أحست وهي تترك ثوب الحمام يسقط أرضا، بذلك الوحش يتلوى صارخا، يكسر أسوار الصمت، يقفز من أعماقها، يحطم باب الغرفة ويلتهم ذاكر بالقبل والعناق. تماسكت. لبست قميصا أحمر من الصوف الخفيف تكشف فتحته الأمامية، مثلثة الشكل، مولد نهديها، وتنورة سوداء مستقيمة متوسطة الطول ملاصقة لجسمها.

جففت شعرها وتركته يتدلى على كتفيها وظهرها. تضمخت بعطرها الفرنسي المفضل «كوكو ماديموازيل». انتعلت حذاءها الأسود اللامع ذا الكعب المدبب العالي. تزينت ببعض المساحيق الخفيفة. حملت على كتفها حقيبتها الجلدية السوداء الصغيرة ومعطفها الأسود الواقي ذي اللمعان.

قبل أن تغادر الغرفة التفتت، كان بنطلونها الجينز القديم ملقى على السرير وقربه بلوفرها الصوفي الخشن..

حين دخلت قاعة الجلوس وجدته واقفا أمام النافذة. التفت على وقع أقدامها. ظل يحدق فيها برهة ثم بادرها قائلا بصوت مرتبك:

– جميلة جدا.. شقتك.. فعلا رائعة.. وهذا الديكور والألوان.. تشبهك فعلا.

ظلت واقفة في مكانها تنظر إليه في برود مصطنع. البركان داخلها في حالة غليان. الوحش يهدد، في أي حين، بتهشيم قفصه الفولاذي.

– حسنا، لم أحظ منك بكلمة ترحيب فهل لي على الأقل بما يطفئ عطشي؟

لم يغير أسلوبه. ذلك الحديث الملغم بالمعاني. لو نطق الوحش لأجابه: أي عطش تقصد؟ ولكنها أجابته بنفس البرود:

– ماذا تشرب؟

خيل إليها وهي تلمح لمعانا مرتعشا بعينيه أنه سيجيبها: أنت. ولكنه أجابها بصوت عميق:

– كوبا من النبيذ الأبيض. كان مشروبهما المفضل كلما التقيا في شقته. منذ خمس سنوات.

– نبيذ في الحادية عشرة صباحا؟ سألته ساخرة.

– لقد انتظرتك طويلا، لا تبخلي علي بالشيء الوحيد الذي يطفئ عطشي.

نظرت إليه. أحست بضعف شديد. عطره يجتاح المكان، يلتف كالبواء حولها، يعصرها.

عيناه تلتهمانها. كاد الوحش داخلها أن يغادر محميته. أسرعت إلى المطبخ. تناولت من الثلاجة قنينة النبيذ ومن الخزانة الحائطية كأسا. لا بل كأسين. يجب أن توقف ارتعاش يديها.

ترددت. منذ مدة تغيرت علاقتها مع النبيذ، لم يعد يغريها كثيرا. ربما لأنها تفطنت إلى أن نشوة سكره ليست سوى وهم سريع الفناء. وربما لأنها باتت تجد متعة السكر في أشياء أعمق وأبقى منه.

ملأت الكأسين على الطاولة الحائطية الضيقة. شربت الأول في جرعة طويلة واحدة. تناولت الكوب الثاني. همت بالخروج حين فاجأها صوته من الخلف قائلا:

– أعجبتني شقتك كثيرا..أجدك في كل مكان رغم أنني لم ألمح صورة واحدة لك فيها..لعلي وقعت في حبها..

لم تلتفت. شعرت بخطواته تقترب منها ببطء. توقف خلفها. يكاد يلامس صدره ظهرها. أنفاسه الحارة تلفح رقبتها. تجولت يداه ببطء حارق من أسفل ظهرها إلى أعلى كتفيها. عبثت بشعرها. أنهت أصابعه رحلتها قرب نهديها أين رسمت خطوطا دائرية. اقترب منها أكثر.. التصق جسداهما..التصقت شفتاه برقبتها..التفتت إليه..

كان هناك، واقفا بمدخل المطبخ، متكئا على جزء من الباب ويداه في جيبي بنطلونه الرمادي الأنيق..ما الذي يحدث لها؟ يجب أن يغادرا الشقة حالا..

– أرجوك أن تشرب الكأس سريعا، ينبغي أن نخرج حالا. قالت له بصوت خال من أي نبرة.

تناول من يدها الكأس وتجرعه دفعة واحدة وهو يرمقها بنظرة المتفهم المتواطئ. كم تمقت تلك النظرة. سبقته في مغادرة المطبخ. لا بد أنه لاحظ احتقان وجهها. يصعب على المرء اختراق الجحيم دون أن يحترق، حتى وإن كان شيطانا.

خرجا معا من شقتها. أحست بارتياح شديد.

أصرّ على أن يذهبا معا في سيارته إلى إحدى صالونات الشاي الفاخرة في «ضفاف البحيرة» في الضاحية الشمالية

من العاصمة. تبعته دون نقاش. سيارته كبيرة، فخمة، سوداء. مغلفة من الداخل بجلد بني فاتح.

امتزج عطره برائحة الصنوبر في السيارة تخرج كجني القنديل، من قنينة صغيرة مثبتة بمجدد الهواء الموجود بلوحة القيادة. هل أراد «ملء عينيها». إغراءها؟ لا.. لا تعتقد ذلك...

يعلم أن القشور لا تغريها.

صمت لبضع دقائق وهو بصدد القيادة. لا بد أنه يرتب أفكاره. لم يتغير، يعرف ما يقول ولا يقول إلا ما يعرف.

رصانته تزعجها، ربما تغار منها. هي مندفعة، متهورة، هائجة، جامحة، فيما تقول وما تكتب وما تحس. وإن وجدتها يوما هادئة فهي في أغلب الظن تمثل دور الهدوء المفضل لديها لإخفاء خطب ما. كان كثيرا ما يداعبها، ساخرا من شراستها. لكنها تعلم أنه يعشق ذلك الجانب المتوحش فيها. كان دائما يناديها «Ma tigresse»، نمرتي.

خرج صوته هادئا وهو يخبرها بأنه تعرف على «شريف» عن طريق صديق مشترك منذ سنتين لما كان مقيما في لوس أنجلوس. يدير هناك بعض الأعمال المتنوعة ومن بينها مجلة ثقافية - اجتماعية عنوانها The Other Position (الموقف الآخر)، التي تصدر بالأساس بلغة شكسبير، مع عشر صفحات باللغة العربية، وقد لاقت رواجا كبيرا لدى الأمريكيين عموما، ولدى الجالية العربية بصفة خاصة.

منذ لقائهما عبّر له سي الشريف عن إعجابه بهذه التجربة، خصوصا بعد أن زار مقر المجلة وتعرف عن

كثب على طرق سيرها الحديثة، وعرض عليه فكرة إحداث توأمة بين مجلتيهما.

وفي الأشهر الأخيرة، قرر ذاكر العودة نهائيا إلى أرضه الأم تونس. باع معظم مؤسساته هناك. احتفظ بالخصوص بالمجلة تاركا إدارتها لصديق أمريكي قديم من أصل مصري. أعاد سي شريف الاتصال به وأعلمه بما تعانيه المجلة من صعوبات وعرض عليه أن يشاركه فقبل.

عاد إلى تونس منذ شهر. منذ أسبوع أنهيا الإجراءات المتعلقة بالوثائق القانونية وإمضاء العقود.

زار يوم السبت المنقضي مقر المجلة مع سي شريف وابنته سلمى. أعلمته أنه يمكنه اختيار أي مكتب ليباشر به مهامه الجديدة، فطلب منها أن تختار له مكتبا به شرفة جميلة.

لم يكن يعلم أنه مكتبها. ولا يدري لماذا اختارت سلمى ذلك المكتب بالذات.

كانت تنصت إليه في صمت. لم يشف حديثه غليلها. تعلم أنه لا يكذب فليست المداهنة من صفاته.

ولكنه لم يكشف النقاب عن كل ما يدور بخلده. ازداد عطشها للحقيقة. بدأت نبال التساؤلات تطعن فكرها.

لماذا قرر العودة نهائيا؟ منذ متى يعلم أنها تعمل هناك؟ ولماذا يشارك في رأسمال المجلة رغم علمه بما تواجهه من متاعب؟

لما جلسا في قاعة الشاي «فوكاتس» في «ضفاف البحيرة»، كان قد أفرغ ما في جعبته من الحديث عن

سوء التفاهم الذي حصل. خيم بينهما للحظات صمت ثقيل.

– ألا زلت غاضبة؟ سألها بصوت يعتريه بعض القلق.

– إذا عاد كل شيء إلى نصابه فلا مبرر للغضب.

– اطمئني، أمرت بإعادة مكتبك إلى مكانه منذ البارحة، حتى أنني اضطررت إلى استعارة مكتب الآنسة سلمى لأتم بعض الأعمال المستعجلة.

– وإلى أي مكتب ستنتقل الآن؟

– صدقا، لست أدري، إنها آخر مسألة قد تهمني. تركت لشريف الاختيار. يوم الاثنين سأعرف مكتبي الجديد.

– كلامك هذا يشعرني بأنني تصرفت كطفلة غراء افتك أحدهم لعبتها المفضلة.

– هذا صحيح، قال ضاحكا، تعرفين أن الجانب الطفولي فيك محبب جدا. لم تتغيري لا زلت كالأطفال لا تعرفين التزلف.

– هل تمدحني أم تذمني؟ يجب أن تخبرني حتى أعرف إن كان علي أن أشكرك أم أصفعك؟

– لا..لا..كفى رجاء. قال ضاحكا. هروبك بالأمس كان صفعة مؤلمة جدا لي. حاولت اللحاق بك نزولا على الدرج. كدت أقع في مناسبتين. لما وصلت إلى شارع بورقيبة، التفتّ إلى اليمين وإلى اليسار.. لا شيء..اختفيت مثل الأشباح. لا تخالي أنني ما زلت ذلك الشاب قوي البنيان الذي صادفته منذ خمس سنوات.

– يبدو أنك نسيت التجول في أنهج العاصمة. ذاكر، لماذا عدت إلى تونس، ألم تكن تنوي الاستقرار نهائيا بالولايات المتحدة؟ سألته بصورة فجائية مستغلة عدم تركيزه.

صمت برهة. ذابت ابتسامته السعيدة تدريجيا ثمّ أجابها:

– حدثت أمور جعلتني أقتنع بأن علي العودة نهائيا. أجابها بنبرة جدية ظنت للحظات أنها لمحت بها طيف حزن دفين.

همّت بأن تطرح عليه ذلك السؤال الذي يحيرها ويشغل بالها منذ قدومه: متى علم باشتغالها بالمجلة؟ استعملت كبرياؤها حق الفيتو. ظلت صامتة إلى أن قال:

– علمت أن والديك توفيا رحمهما الله. لا بد أن الأمر كان مؤلما.

– نعم، رحمهما الله. لم يعد لي في الحياة سوى شقيقي وليد.

– هل هو بخير؟

– حصل على الإجازة في الفنون الجميلة. بقي سنتين يعيش من إبداعاته في الرسم والنحت ثم استغل مدخراته ليقوم، طوال سنة، برحلات في عدد من البلدان وفي النهاية عاد ليدرس في مدرسة لتصميم الأزياء بتونس. إنه في السنة النهائية هذا العام.

– عظيم. أرجو له التوفيق. علمت أيضا أنك تزوجت ثم طلقت.

تفطنت إلى أنه دس، بمكر الرجال، ذلك السؤال في سياق حديثهما، ربما لأنه لا يريد أن تتفطن إلى أهمية جوابها لديه.

– كان طلاقا بالتراضي. في النهاية اتفقنا على شيء. ماذا عنك؟

– حسنا. .لقد تزوجت منذ سنتين بفتاة أمريكية من أصل مصري. .قال ثم صمت برهة. .

أحست خلالها بمرارة غريبة. .تمنت لو لم تقبل دعوته. .تناولت رشفة طويلة من قهوتها لعلها تخفي معالم الخيبة على وجهها. .

واصل قائلا:

– توفيت ساندرا منذ أقل من سنة. كانت حاملا في الشهر الخامس. لم يتمكن الأطباء من إنقاذ الجنين.

مقتت نفسها في تلك اللحظة. كان وجهه يكاد ينطق حزنا وألما. أما هي فقد شعرت بارتياح غريب. لا تدري إن كان صوتها مقنعا لما قالت له:

– أنا فعلا آسفة. تعازي الخالصة.

– لماذا أغلقت هاتفك؟ حاولت الاتصال بك عشرات المرات لكن دون جدوى. لا أفهم ما الذي يحصل. أكاد أجن؟ قالت سهام في تشنج هستيري لم يطغ على فرحتها برؤية نجلاء.

لم تتمالك نفسها عن الضحك وهي تقوم من كرسيها لتقبلها.

– لم أغلق هاتفي، في البداية نسيته في المنزل ثم نسيت أن أشحن البطارية فانطفأ تلقائيا. لم أنتبه إليه فأنت تعلمين السبب.

– وأي سبب، لو لم تأت اليوم لكنت هجمت عليك في شقتك. كدت أجن لما تفطنت إلى انتقال مكتبك. ثم قالت بهمس رغم أنها أغلقت وراءها باب المكتب: تلك الحرباء «المسلينة» سلمى هي السبب فيما حصل. لا أدري من أين استوحت تلك الفكرة القذرة. ولماذا اختارت مكتبك أنت بالذات؟

– لأن به شرفة جميلة. أجابت ضاحكة.

– ماذا؟ هل هذا وقت مزاح؟ تلك الأفعى لن تتوقف عن الفحيح حتى تلسع أحدنا وتسمم وجوده. عليك أن تتخذي موقفا صارما.

– لا عليك، تعلمين أنه لا خوف عليك، فأنا مرمى سهامها. تعلمين أيضا أن والدها سي شريف عزيز علي ولا أرغب في بث البلبلة في علاقتنا. ثم إنني لا أريد الحديث في هذا الموضوع الآن. أين رؤوف، لم أره هذا الصباح. ألم يعد من السفر يوم السبت؟

أجابتها سهام محاولة السيطرة على حنقها:

– بلى، عاد. لكنه منذ الأمس بدأ متابعة فعاليات مهرجان أيام قرطاج السينمائية. هل نسيت أنه رئيس تحرير الشؤون الفنية بالمجلة. هنيئا له، يتجول من مهرجان إلى آخر.

– غير معقول، كيف نسيت المهرجان؟ حسنا سهام، رجاء خذي هذا التحقيق حول جمعية الأمل الخيرية إلى مصلحة الطبع، لقد رقنته وهو جاهز. اتصلي برؤوف

واطلبي منه أن يحضر معه برنامج المهرجان واعلميه أننا سنتغدى ثلاثتنا معا يجب أن ننظم أوقاتنا كي نتمكن من مشاهدة أكثر عدد من الأفلام معا.

– من ثالثنا؟ سألتها سهام بمكر.

– كفاك سخفا. أجابتها نجلاء وهي تحدجها بنظرة صارمة مليئة بالمعاني ثم أردفت بلطف:

– سأخبرك بكل شيء لاحقا. هيا انطلقي لا تقفي مثل العمود.

تلك الشقراء المكتنزة، تعتبرها فعلا من أعز صديقاتها. هي صحفية مبتدئة. تصغرها بخمسة أعوام. تعشق فيها تلك القدرة الخارقة على أن ترى الحياة بلون وردي مهما حصل.

والأغرب من ذلك أنها تسرب لك العدوى الوردية كلما كنت معها فتجد نفسك تسبح بين أمواج أغنية La vie en rose للمطربة الفرنسية «إيديت بياف». وأغنية «خلي الحزن بعيد عليك» للمطربة التونسية سنية مبارك.. مع أن حياتها ليست وردية تماما.

تعيش مدا وزجرا أزليا بين رفضها لزوج رجعي يهملها ولا يتوانى أحيانا عن تعنيفها وحبها الخرافي لوحيدتها ياسمين، وخوفها من طلاق قد تكون عواقبه وخيمة على ملاكها الصغير. زد على ذلك رفض عائلتها استقبالها في صورة الانفصال.

صورة ياسمين وهي لا تتجاوز الستة أشهر لا تفارق مكتبها في يمين الفضاء المفتوح بالمجلة. عمرها سنتان اليوم.

جاءتها في أحد الأيام إلى المكتب باكية. أعلمتها أن الوحش صفعها في الصباح، وأسقطها أرضا بعنف. رجعت بعد ساعة وعلى وجهها علامات الانشراح لتدعوها إلى مشاهدة مسرحية «المجنون» لرجل المسرح التونسي الكبير توفيق الجبالي التي ستعرض في فضاء «التياترو» في العاصمة.

سألتها يومئذ إن كان زوجها سيسمح لها بذلك. فأجابتها ضاحكة «أنا غضبانة مع ياسمين منذ يومين في منزل والدي. هل تريدين أن أنام؟ بل سأقيم الدنيا وأقعدها. إنها فرصة لا تعوض فأنا لا أصفع كل يوم».

غريبة قدرتها الخارقة على خلق ابتسامة من كل شيء.. من لا شيء.. وحتى من وحل الأحزان.. تسكن بين ضلوعها جذوة أمل لا تنطفئ.. وليتها لا تنطفئ أبدا.

كانت لها سندا في أشد الأوقات. حاولت كثيرا إقناعها بأن تتخذ قرارا حاسما. كان جوابها دائما مقنعا وقاتلا.. مازلت أحبه.

تتساءل دائما كيف لامرأة مثقفة مثل سهام، مفعمة بحب الحرية، موظفة كادحة وفوق هذا كله ذات قدر من الجمال، أن تحب جلادها. كيف تتنازل عن كرامتها وتسمح لذلك الوحش أن يطبع على جسدها وشام عقده.. باسم الحب.

عندما بدأت سهام تعمل بالمجلة منذ سنة ونصف، شعرا بالانسجام منذ البداية. لكن الأكيد هو أن صورة ياسمين هي التي جعلتهما يقتربان أكثر. تفطنت سهام

إلى أنها كثيرة التردد على مكتبها والتحديق في صورة ابنتها والإطراء على جمالها الطفولي البريء.

في أحد الأيام سلمتها سهام نسخة من نفس الصورة وقالت لها: «ياسمين ليست ابنتي فقط بل هي أيضا ابنتك». منذ ذلك اليوم باتت صداقتهما أكثر عمقا. أصبحت سهام تدعوها من حين إلى آخر للتنزه مع ياسمين في المنتزهات أو في ملاهي الأطفال. صار تعلقها كبيرا بتلك «الدبدوبة»، كما يحلو لها أن تناديها.

في فترة زواجها لم تذعن لضغط من حولها بخصوص مسألة الإنجاب. ماما زبيدة بعبارتها المعهودة «آ..ثماش حويجة؟». صديقاتها بذلك السؤال البريء «آ..نجلاء.. ثماش بيبي..؟».

وبعض زميلاتها في العمل بذلك الاستفسار غير البريء في معظم الأحيان «آ..نجلاء..فما بيبي ولا مازلت تخمم..». كانت تشعر أنهن يردن التحقيق لا في مسألة حملها من عدمه وإنما في سر عدم حملها بعد بضعة أشهر من الزواج وهل أن هناك إشكالا جسديا، وفي أي من الطرفين يكمن العيب وإن لم يكن المانع طبيا، فهل هناك مشاكل بين العروسين، وأي نوع من المشاكل؟

في البداية أزعجتها كثيرا تلك الأسئلة المقنعة والتدخلات في حياتها الخاصة. لكأنهن يسألنها بوقاحة هل أنها مارست الجنس أم لا مع منير في الأيام الماضية؟ كانت ترغب في أن تجيبهن جميعا وما دخلكن في الموضوع، أنام مع زوجي متى أريد وأصنع الأطفال متى يعن لي. ولكنها لم تفعل. اكتشفت أن ذلك التحقيق

هو مرحلة لا بد أن تمر بها أي امرأة حديثة العهد بالزواج. وأن تلك الأسئلة إنما هي تعبير عن التعاطف والاهتمام وقد جرت العادة عليها. هذا ما فسرته لها ماما زبيدة عندما صارحتها بامتعاضها إزاء عدم تحفظ بعض المتطفلات.

ولكن أي تعاطف هذا؟ هل لدى البعض رغبة قاتمة مكبوتة في أن يكون لدى الآخر خطب أو معضلة ما حتى يتسنى له ممارسة هواية التعاطف الجنائزي. بئس تلك العادة. كم كرهت العادات في فترة ما قبل الزواج. ها هي تعاني مما هو أتعس بعده.

كانت أسعد فترات علاقتها بمنير هي فترة التعارف قبل الخطبة. تبدأ التعاسة بزج البنصر المسكين في خاتم «السوليتار» المشؤوم. عندها يدخل الكل مثل أشعب المتطفل، في المعمعة ويصبح لمن هب ودب رأي في كل شيء وفي أي شيء وفي لا شيء، ببساطة « تمساط».

تصحو وتنام في منزلها على: متى سيتم الزواج؟ هل سيجلب لك «العيد»، وهي هدايا يقدمها الرجل لخطيبته مدة الخطوبة في كل المناسبات الدينية؟ متى سيتم شراء «السيري» أو «السياغة»، وهي طاقم المصوغ الذهبي المتكون من قلادة وأخراس وخاتم وسوار يجبر الرجل على إهدائها إلى عروسه يوم عقد القران؟ هل اخترتما الأثاث؟ . . .

في منزله تتغير الموجة الهرتيزية: هل أنت مجهزة؟ ويعني هل اشتريت الأغراض التي تجبر الفتاة على جلبها إلى محل الزوجية مثل الأغطية والمفروشات والأواني. جرت العادة أن يحمل الجهاز إلى محل الزوجية في

أوعية مثل الأطباق مع ارتفاع جانبيها تسمى «كنسترو»، أحيانا على وقع دقات الطبل والمزمار. بل إن التطور التكنولوجي وصل بنا نحن العرب إلى أن بعض البنات «القافزات» في تونس، بتن تجلبن معهن غسالة الثياب الآلية وحتى السيارة. ليس ذلك للتباهي والمفاخرة، أبدا إن بعض الظن إثم، وإنما لضمان «الهناء» أي السعادة الزوجية، فهل يعقل أن تدخل التعاسة إلى بيت به غسالة وسيارة؟

آه.. العادات أو ما تسميه هي الصخور الناتئة المدببة التي نجبر جميعا على الجلوس عليها، وبئس المصير لمن لا يتقنع مثل «كلون» السرك أو «جوكر» لعبة الورق بابتسامة عريضة تعري آخر أضراسه، وهو يتألم بصمت لانخرام قفاه، والويل لمن يحمل المعول ويحاول تمليس النتوء. الجميع يتأوه ولا أحد يشفق على قفاه أو قفا غيره. هل إن المجتمع التونسي سادي مازوشي إلى هذه الدرجة؟ هل أن وجع الآخر يهون عليك فعلا وجعك الخاص كما يقول مثلنا القومي المشهور «الشنقة مع الجماعة خلاعة»؟

كانت تريد أن تصيح على الملأ قائلة: أنا لا أريد شيئا وهو لا يريد شيئا، فقط نريد أن تتركونا بسلام.

تحب الأطفال كثيرا.. تعشق فيهم طفولتها الآفلة.. براءة سنوات الصبا.. لامبالاتها.. طيشها.. تمردها على قوانين الكهول الجامدة.. عصيانها للدخول في قوالبهم الجاهزة.

ذاكر. .الرجل الوحيد الذي أثار في جسدها شهوة الحمل.

أليس أجمل تحنيط لقمة الانصهار الجسدي والروحي بين العاشقين، كائن صغير يحمل ذاكرتهما العشقو-جينية بكل وفاء في جسد واحد؟

انتظرت سدى أن تطفو تلك الشهوة مرة أخرى على السطح، خلال فترة زواجها. كادت أن تقرر الإنجاب دونها، عندما طفت على السطح شهوة أعنف منها.. رغبة الانفصال.

رأت سهام ذلك الصباح تتجول بين أروقة المجلة، تغدق بكرم حاتمي على زملائها النكت والبسمات وتنفخ فيهم روح الدعابة فتقلب تجهمهم الصباحي إلى غبطة وانشراح..

من منهما عرف الحب، نجلاء التي تخلت بكبرياء الملوك عن رجل حياتها ورفضت السفر معه؟

أم سهام التي قبلت، باسم الحب، ممارسة السفر اليومي مع زوجها في دهاليز القهر والإذلال والعبودية؟

لا يسعها أن تجيب، ولكنها على يقين أن الأرض لو دارت حول الشمس خمس دورات خلفية وعادت حمائم السطوح ترفرف قرب تلك الشرفة من شقته لتكون الشاهد الأخرس الوحيد على هدوئهما..صراخهما.. عناقهما..ثم فراقهما..في ليلة القرار الملعونة، لما غيرت أي شيء.

كل ما حدث ليلتها كان جميلا . . رغم الغضب والحزن وتصفية الحسابات. كانت شياطين الفراق تحوم حول ذلك السرير الذي استقبل ليلتها روحيهما المحترقين في آخر رقصة محمومة على وقع سيمفونية الوداع.

ما كان يسعهما الرحيل دون أن يقولاها بلغتهما. . أحبك. لم يقلها أحدهما للآخر يوما بالكلمات. لم يريدا لجمرات عشقهما أن تمسي رمادا بماء الكلام. ألم يقل نزار « . . إن الحروف تموت حين تقال . . ».

لا تدري ليلتها من بادر بلمس الآخر. كانت تستعدّ للخروج بصمت من أرهقه الكلام. مرّت حذوه. تلامست يداهما. لعلها الصدفة. أمسك يدها بشدة لم تعهدها. التفتت إليه. التقت عيونهما المرتعشة. التقت شفاههما المضطربة. وبدأ الكلام. . الكلام. . حديث الروح والجسد.

لم يدقا طبول حربهما المعتادة. كان كل شيء يهدد باندلاعها. ولكن احتلت مكانها حرب بطيئة.

حدث كل شيء ببطء غريب. . بطء يكتشفان حلاوته لأول مرة. هل كانا يريدان ربح الوقت. . تمطيط الزمن؟

دامت تلك الحرب الغامضة ليلة كاملة، لم يغمض خلالها لأحد منهما جفن.

شربا نظراتهما حتى الثمالة. . ربما ليحتملا ظمأ البين المحتوم. هل كانا يعلمان أنها آخر ليلة لهما معا؟

عندما ظهر أول خيط من خيوط الفجر نهضت، تحوك للعشق كفن الوداع. لبست ثيابها بهدوء وسرعة مذهلين. خطت على أطراف أصابعها. لم تحدث أدنى

ضجيج بحذائها ذي الكعب العالي. خرجت دون أن تلتفت خلفها. بحنكة اللصوص، أحكمت غلق الباب وراءها بسكون. سمعت نداء. .توقفت برهة قبل أن تنزل أول درجة. . ترددت. .ثم رحلت.

6

كان مطعم «الركن الفرنسي» في نهج ابن خلدون بالعاصمة مكتظا بالحرفاء. لاحظت تعدد لهجاتهم. أمر طبيعي في مهرجان عرس السينما الإفريقية والعالمية. شارفت الساعة على منتصف النهار والنصف. مرت خمس دقائق وهي تنتظر قدوم رؤوف وسهام.

ارتعش الهاتف في جيب سترتها الحمراء. إنه وليد.

– أهلا بمصمم الأزياء الكبير، كيف اشتقت إلى أختك مع أنك كنت معي بالأمس؟

– بكل صراحة لم أشتق إليك ولكن إلى «ملوخيتك» الشهية. قال مقهقها.

– لا تقل لي أيها النهم إنك التهمت الإناء الذي أعطيتك إياه.

– في الحقيقة لم أقترف جريمة الالتهام بمفردي بل شاركني فيها أحد الأصدقاء.

– أحد الأصدقاء أم إحدى الصديقات؟ هيا اعترف. صرت تستقبل الفتيات في شقتك؟

صمت وليد برهة، ثم أجابها:

– حسنا، لن أستطيع رؤيتك هذا الأسبوع، يوم الأربعاء أنا مشغول، وفي نهاية الأسبوع سأقوم برحلة استكشافية إلى الجنوب التونسي مع أحد الأصدقاء.

– مهلا، ألا يمكنك تأجيل الرحلة إلى موعد آخر. «أيام قرطاج السينمائية» موعد يصعب تعويضه لاكتشاف

تطور السينما الإفريقية والعربية وحتى العالمية. يمكنك إحضار أصدقائك معك.

– آسف، مستحيل.. لا يمكنني تغيير الموعد، ثم تعرفين أنني لا أحب إلا الأفلام الأمريكية.

– صمتا وإلا سمعك أصدقائي. حسنا أنت الخاسر في النهاية.. قبلاتي.

– إلى اللقاء في الأسبوع المقبل.

اعتادت على غموض وليد. جندت مكرها الهزيل كي تستدرجه ليزيح اللثام عن بعض مغامراته مع بنات حواء، لكن ذهبت كل محاولاتها سدى. منذ بضع سنوات بات مراوغا شديد التكتم على أخباره العاطفية.

كانت تعزو تكتمه إلى رغبته اللاواعية في وأد تعلقه بها وتبعيته المفرطة لها في سنوات الطفولة. تريد أن تقترب منه أكثر، خصوصا بعد وفاة والديهما وتحس أنه يرغب أيضا في الاقتراب منها. ولكن هناك حاجز مجهول يحول دون ذلك.

زارها بالأمس في شقتها. كالعادة، دق جرس الباب عدة دقات متتالية معلنا جوعه الأسبوعي الخرافي لالتهام ملوخية «الماتر»، كما يحلو له أن يسميها. كانت ماما زبيدة تطبخ له الملوخية كل يوم أحد. تعلمت عنها طهي ذلك الطبق التونسي.

لا تستطيع أن تمتنع عن الضحك كلما تذكرت علامات الدهشة والتقزز ترتسم على وجه سمر الكويتية زميلة أحلام في دبي، لما رأت صحن الملوخية على الطاولة. دعتها أحلام إلى قضاء أسبوع بمنزل والديها في ضاحية درمش بالعاصمة. بعد دقائق من التردد وبعد

التشجيعات انهالت سمر على ملوخية ماما زبيدة تلتهمها وتطري على حنكة طاهيتها.

بعد وفاة ماما زبيدة، اتفقت مع وليد على الالتقاء أسبوعيا كل يوم أحد، مرة في شقتها لتناول الملوخية ومرّة في شقته لتناول «البيتزا» التي يتقن إعدادها.

تحادثا في مواضيع مختلفة إلى أن عاد بهما المطاف دون أن يشعرا، إلى والديهما. أثارا بعض الذكريات، ضحكا كثيرا، وطفرت من عينيهما بعض العبرات. مر أكثر من سنة على رحيلهما ولكن كلوم الفراق أبت الالتئام. سألها إن كانت أعادت زيارة أكرم، ذلك الشاب الذي تسبب في موت والديهما. أجابت بالنفي، وغيرت الموضوع لما أحست برغبته في الخوض فيه أكثر. لم يكن ذلك صحيحا.

بعد أسبوع من مغادرتها السريعة لمنزل أكرم. اتصلت بها والدته. أعلمتها بتعكير حالته النفسية إلى درجة أقدم فيها منذ يومين على محاولة الانتحار. استغل غياب أمه ساعة من الزمن لقضاء مآرب عاجلة، وابتلع كل الأقراص المهدئة التي وصفها له طبيب الأعصاب لمعالجة انهياره العصبي.

لم تطلب منها السيدة آسيا المجيء. لكن عيادة أكرم كانت بالنسبة إليها أمرا محتوما كرحيل أبويها. وجدت نفسها بعد نصف ساعة في بيت الاستقبال الكبير.

ما الذي تفعله هنا؟ هل من الطبيعي أن تأتي لتخفف مصاب من تسبب لها في أعظم مصاب؟

رغم تلك المفارقة التي لا تجد لها تفسيرا، بدا لها الأمر غاية في البساطة. كل ما كانت تكنه لأكرم من حقد وضغينة زال بمجرد اكتشافها فقدانه البصر نهائيا. لما تلقت مكالمة السيدة آسيا،لم تعد ترى فيه سوى إنسان. .يحتاج إلى يد تنتشله من بؤرة القنوط وهوس الموت.

وجدته في فراشه متكئا على مخدتين كبيرتين. شحب وجهه وغطت أسفل عينيه ظلال تترنح بين الزرقة والسواد.لم ينقص ذلك شيئا من وسامته الهادئة. حيته وزعمت أنها شقيقة أحد الطلبة بكليته، سمعت بالحادث فأرادت الاطمئنان عليه ومد يد المساعدة. سألها عن سبب رحيلها المفاجئ لما زارته أول مرة. أخبرته بأن اكتشافها فقدانه البصر أصابها بصدمة عابرة.

– كيف ستساعدينني إذن؟ سألها بتهكم لا يخلو من مرارة.

– علمت من السيدة آسيا أنك مغرم بالمطالعة، لذا جلبت لك معي بعض الروايات لأقرأها لك.

صمت برهة ثم سألها:

– بأي رواية ستبدئين؟

غمرها سؤاله غبطة. منذ ذلك اليوم أينعت بذرة صداقتهما وصار اللقاء بينهما كل مساء يوم الأربعاء. كانت تقرأ على مسامعه بعض الصفحات من روايات فرنسية معروفة.

في الأسبوع الثالث، لاحظت عليه انشراحا غير عادي. طلب منها بعد حصة المطالعة أن ترافقه في نزهة داخل حديقة المنزل، علمت خلالها أن معظم أصدقائه

تخلوا عنه ما عدا واحد منهم ظل متمسكا به ويزوره بانتظام. أعلمها بحماس أنه تعلم على يديه مواجهة العالم الخارجي والمشي في الشارع بواسطة العصا البيضاء. أحست يومها أنه استرجع ثقته في الحياة وأنه استوعب أخيرا فكرة فقدانه البصر نهائيا.

تلك الصداقة التي جمعتها به مكنتها من التعرف عليه عن كثب. توفي والده منذ تسع سنوات تاركا زوجة لا تزال شابة وصبيا لم يتجاوز العاشرة. كان شديد التعلق به. عجز عن تجاوز صدمة موته. كاد يسقط في كآبة مزمنة لولا مساندة والدته. ضحت بالكثير من أجله. رفضت كل من تقدم لها من الأزواج احتراما لمشاعره. اعتنت به وأحسنت تربيته.

كانت دماثة أخلاقه وطيبة قلبه تتضح لها يوما بعد يوم. استغلت إسراره إليها ببعض الذكريات في إحدى الأمسيات، وسألته عن سبب الأزمة النفسية التي مر بها يوم الحادث اللعين. اكفهر وجهه. ظنت للحظة أنه سينفجر. لكنه تمالك نفسه ثم أكد لها بأنه سيخبرها بما حدث في يوم ما.

نغمات إعادة لإحدى السوبرانو لأغنية «لاشا كي بيانجا».. «دعني أبكي» التي ألفها «هندل» وأداها الكاسترا «فارينالي» في القرن الثامن عشر. كانت تقرأ له قصة «الحلم» للكاتب الفرنسي «إميل زولا» في إحدى الأمسيات، استوقفها وطلب منها أن تسمعه.

– قبل الحادثة ببضعة أسابيع أصابني توتر شديد. سر كتمته منذ سنوات، أرهق صدري وأقض مضجعي.

قررت أن أبوح به لأمي لعل حملي يخف وروحي تجد الطمأنينة.

يوم الحادثة أخبرتها دون مقدمات، بأنني لا أميل إلى الفتيات. صعقها الخبر. ارتمت على أريكة قاعة الجلوس وكأنها فقدت قدرتها على المشي. ظلت تكرر كالمخبولة: «غير معقول..ابني أنا من المثليين.. يا إلاهي..ماذا فعلت لأستحق هذا..». ثم انطلقت في وصلة عويل هستيري. جلست حذوها. حاولت أن أهدئها. حضنت كتفيها كما تعودت أن أفعل في أوقاتها العصيبة. لكنها قفزت مبتعدة عني وكأنني مصاب بمرض معد خطير.

لا يسعني أن أنسى إلى اليوم نظرة الازدراء التي حدجتني بها وعبارات الرفض والاحتقار التي لفظتها: «لا يمكن أن تكون ابني..لقد ربيت أكرم أحسن تربية، ورسخت فيه تعاليم الدين والخلق الحميد..ضحيت بكل شيء من أجلك كيف تحرمني من ابن بار.. كيف تحرمني من ابن يشرف اسم أبيه ويرفع عاليا لقب عائلته..نحن في تونس، في بلد عربي مسلم ولسنا في أوروبا..كيف تتصور أن تكون لك علاقة برجل..كيف ستعيش علاقة قذرة كهذه..يا ربي أكاد أجن أخبرني هل اعتدى عليك أحدهم وأنت طفل..هل فاحشك رجل ولم تخبرني..أرجوك بحق الله لا تخف عني شيئا».

واصلت أمي نحيبها بينما كنت أحاول كالمجرم أن أبرر لها موقفي. لم أتعرض إلى أي نوع من الاغتصاب. في بداية المراهقة، كان معظم أترابي يتشدقون بعلاقاتهم

مع الجنس الآخر. أما أنا فأتألم كثيرا عندما تحاول فتاة لمسي أو تقبيلي فأصدها لأن ذلك لا يثيرني. تأكدت من ميلي للفتيان في السادسة عشر.

دعيت إلى حفل ميلاد سندس، إحدى صديقات الدراسة، فتاة رائعة تدرس الآن في باريس. ذلك المساء تعرفت إليه. .أنيس، شاب أسمر وسيم يكبرني بثلاث سنوات. وقعت في حبه من أول نظرة وبادلني نفس الشعور. جعلني أكتشف من أكون واختار طريقي دون خجل أو خوف. أخبرني بأن سندس رتبت ذلك اللقاء بيننا وأنها تعاطفت معي لأنها بدورها مثلية. كان يزورني من حين إلى آخر بالمنزل. لم تتفطن أمي إلى أي شيء.

استمرت علاقتنا سنتين، سافر على إثرها لإتمام دراسته الجامعية بأمريكا. انقطعت أخباره. أقمت بعض العلاقات العابرة.لم أكن أبحث عن مجرد مغامرات جسدية بل عن حب حقيقي، ولكنه للأسف لم يصادفني. التقيت بسندس في ملهى ليلي بمدينة الحمامات في الصيف المنقضي. عادت لتقضي العطلة الصيفية مع عائلتها. أخبرتني بأن أنيس يعيش الآن مع أحدهم في نيويورك، وأنها تعاشر صديقة فرنسية قرب البانتيون.

بالطبع لم أسرد لوالدتي كل هذه التفاصيل، لكنني حاولت أن أجعلها تدرك بأن ذاك هو قدري وأنني سعيد به وأن سعادتي لن تكتمل إلا إذا رضيت عني وقبلت باختلافي.

يبدو أنني كنت ساعتها أطلب المستحيل. بدأت تحاول إقناعي بأن أنسى ما حصل وأن أحاول إعادة كتابة قدري بحبر النفاق الاجتماعي. طلبت مني أن أتغير وأن

أحاول مواعدة فتيات في مثل سني. قالت إنها قد تغفر لي ما حصل بالماضي وتعتبره طيش شباب عابر. قالت إنها لن تقبل أن أواصل الانغماس في الحرام والانحراف. لما أخبرتها بأنني لن أتغير، جن جنونها وأخرجتني دفعا من المنزل وطلبت مني ألا أعود.

انهمرت دموع أسى غزيرة على وجنتيه. ارتجفت شفتاه. بدا متعثرا وهو يواصل الحديث قائلا:

– لم أر أمي في تلك الحالة قبل ذلك اليوم. أدركت أنني أسأت التصرف لما واجهتها بالحقيقة، دون استئذان. كان علي أن أهيّئها نفسيا، أن أسقيها الحقيقة جرعة بعد الأخرى لتفادي الصدمة. ركبت سيارتي وأنا في حالة ألم قصوى. اختلط لدي الندم بالحزن والثورة على الأفكار السائدة.

التقيت ببعض الأصدقاء في حانة تابعة لأحد النزل في ضاحية قرطاج. كنت في حالة مزرية. عرض علي أحدهم تدخين سيجارة مخدرة. لم أكن من المولعين بالشرب والتدخين أو المخدرات. لكنني لم أع ما كنت أفعله. كان كل همي تجاوز العذاب ونسيان الواقع ولو للحظات.

قبلت السيجارة. دخنتها وأنا لا أكاد أتوقف عن السعال. في البداية لم أشعر بشيء. كان الجميع حولي يقهقهون. اتفقنا على أن نتوجه إلى أحد الملاهي الليلية لإتمام السهرة.

صعدت إلى سيارتي. شملني إحساس غريب بالراحة والخفة والانسجام. انعرجت إلى طريق قمرت. شعرت برغبة كبيرة في سماع الموسيقى. وضعت قرصا لفرقة

الروك «نيرفانا». بدأت أضحك بسعادة غريبة.. سعادة حمقاء ليس لها سبب.. وفجأة أظلم كل شيء..

لا أتذكر ما حصل بعد ذلك. لا أريد أن أتذكر شيئا..

سمعته دون أن تنبس بحرف. ما عساها تقول.. ولماذا ستقول.. ألتهوّن من عمق ألمه.. أم لتخفف حمل مصابها؟

سألته:

- هل أتم المطالعة؟

أجابها:

- نعم، أرجوك.

لاحت على وجهه علامات الرضا. لم يتفطن إلى قطرات ساخنة ابتلعتها بنهم صفحات «الحلم».

بدأت تفقد صبرها حين لمحت سهام تلج إلى المطعم وخلفها رؤوف. لوحت لهما بيدها مبتسمة. تجمدت بسمتها لما رأتهما يصطحبان شخصا ثالثا.. ازداد توترها مع اقتراب الثالوث. جلس ذاكر قبالتها. بادر رؤوف قائلا:

- لقد اعترضنا مديرنا الجديد أمام دار الثقافة «ابن خلدون». كان يبحث عن برنامج المهرجان فأعطيته نسخة. عرضت عليه أن نشاهد بعض الأفلام سوية. ما رأيك نجلاء أليست فكرة طيبة؟ انهمكت في تفحص ورقة الوجبات المعروضة دون أن تجيب.

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك آنسة نجلاء، قال ذاكر محدقا فيها.

كادت تطلب منه أن يكف عن تفحصها ولكنها ضبطت نفسها قائلة:

– لا، لست منزعجة، على العكس، إنه لشرف أن يتناول المدير غداءه على طاولتي؟ قالت بتهكم تعلم أنه لن ينتبه إليه سواه.

– ليست طاولتك، إنها طاولة المدير لأنه دعانا إلى الغداء على حسابه. قالت سهام ضاحكة.

حاولت كبح جموح غضبها. من يظن نفسه حتى يفرض عليها دعوته الملغومة؟

– حسنا أعلم أنك تكرهين أن يفرض عليك أمر ما، حتى وإن كان دعوة إلى الغداء، ولكن يمكنك اعتبارها دعوة اعتذار عما حصل. قال ذاكر بكل هدوء وكأنه قرأ أفكارها.

ابتسمت ببرود. فاجأت تبادلا خبيثا لنظرات تواطؤ بين سهام ورؤوف. هل تفطنا إلى شيء؟

اختار كل واحد وجبته. بدأ الحديث يدور حول أيام قرطاج السينمائية. تم الاتفاق على مشاهدة شريط «مسخرة» للمخرج الجزائري إلياس سالم في الساعة السادسة مساء وشريط «لولا» للمخرج المغربي نبيل عيوش في الساعة التاسعة مساء.

تهربت من ملاقاته كامل الفترة الصباحية من العمل. مرت أمام مكتبه. .أو مكتب سي شريف سابقا. لم تلتفت رغم أن الباب كان مفتوحا. ثم رابطت في مكتبها كامل الصباح ولم تخرج إلا لما تأكدت من مغادرته مقر المجلة. أرادت أن يدرك أنها أغلقت دونه جميع المنافذ.

كانا يوما ما عاشقين. ولكن ذلك لا يمنحه الحق في اقتحام حياتها مجددا. يجب أن يفهم أن مصيرها الآن بين يديها ولن تتركه بين يدي عابر سبيل يحبها متى يشاء ويرحل متى يشاء. ترفض أن تتألم مرة أخرى من أجل رجل.

أما سي شريف فقد فضّل أن يقاسم ابنته سلمى مكتبها الواسع. لم ينس أن يعتذر منها عما حصل. أكد لها أن سلمى كانت حسنة النية وأنها لو لم تكن على علم بتشبثها بمكتبها لما عرضته على ذاكر.

لم تعارضه مع أنها تعلم ما تكنه لها من ضغينة تلك «المسلينة»، وهي الكنية التي تطلقها عليها سهام، وتعني القميئة. تأذت منها في البداية لكنها وجدت أنه من الأفضل التعود عليها كمن يتعود على مرض مزمن. كثيرا ما كانت تذمها سهام. تقول إن لها حساسية لا ضد «لي أكاريان» تلك الكائنات الميكروسكوبية التي تعشش في الحشايا والمراتب الرطبة، وإنما ضد ذلك الكائن المريخي الذي يحمل في شراينه دما أسود وبين ضلوعه حجرا نيزكيّا اسمه سلمى.

المدهش هو أن الناظر إلى سلمى لا يستشف صفاتها القنفودية التي لها أثر وخز الإبر المسمومة. فهي ذات سمرة خفيفة جذابة وتتمتع بقدر لا بأس به من حسن وأنوثة. لا بد أنها تعرضت في ليلة عاصفة هوجاء إلى ضربة صاعقة أو إلى أشعة فوق بنفسجية مرسلة من طبق طائر لإحدى الكائنات «الإكستراتيرستر» مثل «إي تي» أو « أليان»، حتى تكون لها تلك القدرة الهائلة على

إرسال شحنة كهربائية من الحقد الليزري عبر مجرد نظرة خاطفة. هذا على الأقل تفسير سهام لظاهرة «سلمى».

لم تستطع سلمى أن تقبل حب أبيها لنجلاء وتفضيله لها على بقية الموظفين. لم يمض على انضمامها إلى طاقم المجلة سبعة أشهر. عينها والدها صحفية في قسم الأخبار العالمية بمجرد حصولها على الإجازة من كلية الصحافة رغم صغر سنها وقلة تجربتها. أحسنت استقبالها وحرصت على مساعدتها. كانت تريد أن تعيد لسي شريف بعضا من أفضاله عليها.

ولكن سلمى أمعنت في معاملتها بجفاء. باتت تتحين الفرص لتوقع بينها وبين سي شريف ولا تدخر جهدا لتعرقل سير أعمالها، بل أحاطت نفسها بشرذمة من المتزلفين ليعينوها على بلوغ مآربها الدنيئة. ألم تجرأ على تحريف إحدى مقالاتها بأن أدخلت عليها، خلسة، بعض التحويرات والإضافات التي شوهته وغيرت معناه.

لم تتفطن إلى المكيدة إلا لما وجدت نفسها بمكتب سي شريف، تواجه وابلا من اللوم والاستنكار على العبارات العنصرية الواردة في مقالها والذي لحسن الحظ لم يمر بعد إلى الطبع.

شعرت بالحنق في البداية، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها. قررت أن تتعامل مع الوضعية بكل تعقل وهدوء دبلوماسي. وضعت نصب عينيها علاقتها الذهبية بسي شريف والتي ترفض أن تخسرها بسبب حمق ابنته. تظاهرت بجهلها لنوايا سلمى. ولكنها بقيت، بسند من سهام ورؤوف، متحفزة لأي مقلب قد تعده لها تلك الثعالة.

تركز الحديث بينهم أثناء الغداء حول مهرجان السينما. تحدثوا عن الأفلام المشاركة سواء في المسابقة الرسمية أو على هامش المهرجان. ثم انعرج الحديث نحو أوضاع المجلة.

أخبرهم ذاكر أن حلوله بإدارتها لن يغير شيئا من تركيبتها القاعدية ولا من موظفيها، أما التغيير الذي ينشده فيتعلق أساسا بشكل المجلة الذي يريد تطويره ليواكب أحدث التقنيات العصرية وذلك لاستهداف قاعدة أكبر من القراء وخصوصا لاستقطاب شريحة الشباب منهم والتي تعتبر نفسها خطأ غير معنية بالمجلات الثقافية.

بين لهم أيضا أنه يريد إضافة بعض محاور مثيرة لاهتمام الشباب مع الحرص على ألا تقع المجلة في فخ السطحية أو التفاهة.

– علمت أنك نشرت روايتين ناجحتين خلال السنوات الأخيرة الماضية هل لي بنسخة منها؟ سألها ذاكر وهو يقطع بسكينه تفاحة إلى نصفين كان النادل قد أحضرها في صحن من الغلال.

– لعلي أجد لك نسخة منها. أجابته باقتضاب.

– يبدو أنك بدأت الكتابة منذ خمس سنوات، لماذا لم تكتبي قبل ذلك؟ سألها بنبرة مدججة بالمعاني وهو يقدم لها النصف الثاني من التفاحة.

– لا أحد يتكهن متى سينزل عليه الوحي والإلهام. أجابته وهي تضع جانبا نصف التفاحة وتتناول من صحن الغلال قليلا من العنب.

– إنها بارعة جدا. يجب أن تقرأ لها. أنا أنتظر بشوق روايتها المقبلة. قال رؤوف وهو ينظر إليها بإعجاب شديد يبدو أنه لم يخف على ذاكر.

لم تشعل الأضواء عند نزولها الدرج في ذلك الفجر الحزين. تحسست على الحائط طريقها كطفل تائه مذعور.. ثم استعانت بالدربزين الحديدي لتفادي السقوط. نزلت درجة..درجة..دون أن تلتفت إلى باب شقته. ربما لتتعود على غسق مظلم سيكفن كونها برحيل ذاكر.لم تكن ساعتها تنزل الدرج..كانت تنزل إلى الجحيم.

تعاقبت الأيام بعد انفصالهما ببطء خانق. انغلقت في بوتقة ذاتها تجتر لوعة الفراق. منعتها كبرياؤها أن تذرف دمعة حزن واحدة..مع أن فؤادها كان ينزف..

لم يعد يربطها بالآخر سوى عائلتها التي تجهل علاقتها باستثناء وليد. كانت ستخبر والديها بأنه عرض عليها الزواج..قبل أن يعلمها بقرار سفره.

لم تتخيل أن تكون الحرقة بهذه الخطورة والألم بهذا العمق. ظنت أن الوجع النفسي سيكون عابرا. أدركت أن ألم الروح إذا ما عظم يصير غولا ملتهبا يلتهم حطب الجسد فيحيله رمادا.

ضمر بدنها في ظرف أسبوع من رحيله. كادت رغم ما عهدته في نفسها من صلابة ورباطة جأش، أن تنحدر في هوة انهيار عصبي لا قرار لها.

ثلاثة أشياء كانت لها حبل النجاة من ضياع بدا وقتها محتوما. أولهما بقاء وليد بكل ما أوتي من حب أخوي

إلى جانبها، ثانيهما مواساة صديقاتها ومحاولاتهن الترفيه عنها وثالثها انغماسها المرضي في الكتابة.

في إحدى الأمسيات القاتمة، بعد شهرين من رحيله، نهضت من فراشها، أشعلت النور، أمسكت قلمها وبدأت تكتب.. تكتب.. ولم تتوقف عن الكتابة منذ ذلك اليوم. ليلتها وجدت العبرات أخيرا طريقا إلى عينيها..

يبدو أنه حين يكون لسان المرء مكبلا بقيود الكبرياء وعزة النفس، تضحي الكتابة أفصح لغة للانعتاق.. للحرية..

كانت الكتابة علاجا لها.. وكانت أيضا ذريعتها لتتجاوز المحظور.. لتصدح بالمسكوت عنه.. لتتنفس.. لتنفجر..

مر ذلك الأسبوع بسرعة خرافية. عمل بالمجلة طوال النهار ومشاهدة الأفلام طوال المساء.

لم يرافقهم ذاكر. اضطر إلى السفر منذ صباح يوم الثلاثاء إلى «لوس أنجلوس». لم يفصح عن سبب سفره المفاجئ.

كانت رفقة سهام ورؤوف ممتعة. استمتع الجميع بالمستوى الرفيع لمعظم الأفلام المعروضة. شعرت مع ذلك بفراغ وكآبة تزداد عمقا كلما دفعت باب شقتها مساء.

أزعجتها في البداية فكرة مرافقته لهم إلى السينما. لما اعتذر لهم كان انزعاجها أشد بكثير. أرهقها هذا التضارب. لا تجد قارب نجاة في يم مشاعرها المضطرب. تحتاج إلى قوة تسحق الإعصار، إلى يد مارد تنتشلها من الدوامة ثم تتركها على شاطئ الأمان.

لم يشف غليلها. لم يزح اللثام عن الغموض الذي يحيط به. بل ها هو يمعن في بث البلبلة في أفكارها وأحاسيسها. يعود فجأة من المجهول، ثم يعاود الرحيل فجأة إلى نفس المجهول. لم يترك لها فرصة لاستيعاب الصدمات. لم يتفطن أحد سواها إلى نبرة صوته الحزينة لما جاء ليعتذر من الثالوث المجتمع في مكتبها. .لم يتفطن سواها أيضا إلى حرصه على تحاشي نظراتها. . لماذا؟

عادت مساء السبت إلى شقتها بعد أن التهمت مع أصدقائها معظم أفلام المهرجان. شعرت بصقيع يكاد يخترق عظامها مع أن الجو كان معتدلا. سارعت إلى تشغيل جهاز التدفئة المركزية. همت بأن تغير ملابسها لما سمعت جرس الباب. استجابت السماء إلى ندائها. كان الزائر نذير.

– ها إنك جاهزة. هل نخرج؟ سألها نذير مبتسما وفي عينيه ترتعش أخيلة رغبة مكبوتة.

رغم توطد علاقتهما منذ سنتين فإنها لم تسمح له بأن يمضي ليلة واحدة في شقتها. تعوّد على أن يتم اللقاء بينهما في شقته أو في أماكن أخرى. تعللت بحرصها على سمعتها بين الجيران. لم تكن تلك هي الحقيقة. قررت منذ سنوات عدم الالتفات إلى رأي الآخر في نمط عيشها حتى وإن كان أحد أجوارها. ومن ناحية أخرى، كان معظم أجوارها في تلك العمارة الراقية بضاحية المنار الثالث، من تلك الفئة الميسورة، دون أن تبلغ درجة الثراء، وهي فئة غالبا ما تكون منفتحة وأحيانا ذات ثقافة وتقاليع أوروبية.

في الواقع لم تكن ترغب في أن يعتاد نذير على الأمر فيصبح حقا من حقوقه. لم ترده جزءا من حياتها بل فقط طوق نجاتها في الأوقات الصعبة. كان هذا سبب خصامهما وجفائه منذ أسبوعين.

– لا، تفضل بالدخول. أنا في حاجة إليك.

– هل أنت متأكدة. لا أريد أن أسبب لك المشاكل. قال وهو يدخل مترددا.

أغلقت الباب خلفه بصمت. دعته إلى الجلوس واختفت في المطبخ برهة. عادت وفي يديها طبق عليه كأس «دجين تونيك» وكأس نبيذ أبيض وصحن صغير من الفواكه الجافة وشرائح اللحم. وضعت الطبق أمامه على الطاولة المنخفضة. تناولت كأس النبيذ. جلست قبالته على حافة الأريكة. بدأت ترتشف وعيناها هائمتان في اللوحة السريالية الممضاة. .«نجا المهداوي».

تعرفت إلى نذير، الإطار البنكي الممتاز ورئيس قسم النزاعات عبر الإنترنت، على «الفايس بوك». ليست من هواة جمع الأصدقاء على ذلك الموقع.لم تكن تقبل الصداقات المعروضة إلا بعد أن تتفحص بدقة معلومات كل عرض. لها الفراسة في اختيار الأصدقاء الأقرب إليها ثقافيا وفكريا. .الأشخاص الأكفأ والأنسب ليكون لها معهم تبادل فكري منتج ومفيد.لم تكن من محبي الدردشة السطحية و«تشات. . دق الحنك».

اكتشفت لدى نذير ثقافة عالية وانفتاحا فكريا نادر الوجود. ربما كان لأمه الروسية دور في ذلك. علمت فيما بعد أن أباه ذهب ليدرس الطب في روسيا. عاد

بعد سنوات من الدراسة في جامعة مرموقة هناك، لا بالشهادة، وإنما بعروس روسية رائعة الجمال وحاصلة على الشهائد التي يتحرق إليها والده. على الأقل وفر على نفسه عذاب صخور التقاليد التونسية في ميدان الزواج.

تمكن فيما بعد بفضل ثروة والده من بعث شركة في صنع البرمجيات المعلوماتية، بعد أن أجرى تربصا لدى هيئة عالية في التكوين التكنولوجي والمكتبي بتونس.

أعرب لها نذير عبر رسائله الالكترونية عن عميق إعجابه بأسلوب مقالاتها وبتطرقها إلى مواضيع اجتماعية غاية في الجرأة أي من صنف «التابو» مثل العلاقة بين الجنسين، العذرية، الخيانة، «الكونكوبيناج» أي المعاشرة بين الجنسين دون عقد زواج، الأمهات العازبات..

كان يتناقشان حول بعض تلك المواضيع وكان أحيانا يخبرها بموقف القانون التونسي والمقارن منها. لم تجد مانعا في أن يلتقيا لما عرض عليها في أحد الأيام إعارتها بعض المراجع القانونية. استغرب فيما بعد لما علم أن والدها محام. أخبرته أنها تتحرج من استشارته في مثل تلك المواضيع ولكنها تستشيره في مسائل أخرى. في الحقيقة لم يكن الدافع الوحيد للتعرف على نذير ثقافته القانونية. أعجبتها صوره على الموقع.لم يكن وسيما ولكنه شديد الجاذبية.

شعرا منذ لقائهما الأول بانسجام كبير. اقتصرت مواعيدهما الأولى على تبادل ثقافي محض تطور فيما بعد إلى تبادل إنساني أكثر عمقا.

دقت الساعة الحائطية عشر دقات. فتحت عينيها ببطء. شعرت بوجود شخص بجانبها. التفتت إلى يسارها. كان نذير هناك على سريرها دون غطاء، غارقا في نوم يحكي تنفسه المنتظم عن عمقه. يبدو أنها في غمرة نومها استحوذت على كل الغطاء. بدا مضحكا في بدلة وليد الرياضية. كانت ضيقة عليه، فأبرزت كل تضاريس بدنه، حتى الخاصة جدا. لأول مرة يقاسمها أحد ذلك الفراش.

دون أن تزعجه، توجهت إلى بيت الاستحمام. حانت منها التفاتة إلى بيت الجلوس. بقي الطبق هناك شاهدا على ليلة الاعترافات الغريبة. خيل إليها أن المرآة تمازحها لما عكست لها وجها منتفخا وعينين غائرتين تحيط بهما ظلال سوداء. ملأت الحوض الصغير ماء باردا. جعلت تغطس وجهها فيه، تتركه بضع ثوان، ترفع رأسها، ثم تعيد نفس الحركة عدة مرات. تقنية طمس الظلال وتكفين الأحزان، تعلمتها عن سهام الحائزة على البطولة في هذه الرياضة التنكرية.

توجهت إلى المطبخ لإعداد القهوة. عمرت طاهية القهوة ووضعتها على النار. سمعت جرس الباب. لا بد أنه وليد، عاد من رحلته إلى الجنوب. ليس من عادته أن يأتي مبكرا. لم يزعجها الأمر. يعلم وليد بعلاقتها مع نذير. صحيح أنه لا يحبه ولكنه يحترم اختياراتها.

فتحت الباب. شعرت بقفصها الصدري ينفجر وبفؤادها يقفز منه ويفر إلى المجهول. كان ذاكر واقفا هناك أمامها. لم يكن بقايا حلم ولا أذيال كابوس. إنه هو

بلحمه ودمه. تبادلا النظرات في صمت. لمحت تلك النظرة التي عشقتها منذ خمس سنوات. .ذلك المزيج السحري بين أعشقك. .وأحتاج إليك. .

– نجلاء، أنا بحاجة إليك.

هم بالدخول. بدا متعبا. تسمر في مكانه فجأة. قتمت ملامحه. تقلصت عضلات فكيه.

– المعذرة، لم أكن أعلم أن لديك زائرا. همس بجفاف.

التفتت وراءها، كان نذير واقفا هناك، ينظر إليهما ورجلاه حافيتان وآثار النعاس لا تزال بادية على وجهه.

لما أعادت الالتفات إلى ذاكر لتدعوه إلى الدخول، كان قد انسحب، تاركا خلفه أذيال عطره الرفيع «هيقو بوس». .المفضل لديها.

7

كل درجة تصعدها من ذلك الدرج الرخامي القديم تنزل بها سنوات إلى هوة ذكرى بلا قرار.

تلك الدرجة الثانية، مازالت تحمل ذلك الكسر في جانبها الأيمن. لم تنتبه إليه، منذ خمس سنوات. كان أجمل سقوط لها. أسندتها يداه، ثم جلسا ضاحكين. أذابت حرارة اقترابه منها ما بقي من حواجز. وأذابت حرارة أول قبلة لهما ما أصابها من ألم بعد السقوط.

تلك الدرجة الخامسة وذلك الجدار، كانا شريكين لهما في أول جريمة حب يرتكبانها. جريمة العشق المتعجّل. دعاها إلى شقته بعد أن أمضيا سهرة مجنونة في أحد النوادي الليلية بضاحية قمرت. مر شهر على لقائهما. كان بينهما اتفاق صامت على ترويض جموح جسديهما.

ولكن الوحوش هشمت أقفاصها الفولاذية. في تلك الدرجة. على ذلك الجدار. وتحررت أخيرا من القيود بأدغال شقته الواسعة.

الدربزين الحديدي، لم يتغير، ما يزال حنونا. رحيما. ألم يسند خطاها وهي تنزل متعثرة في فجر الفراق المظلم؟ ها هو ذا يؤازرها، يثبت خطواتها المترددة، يحذرها من مغبة الالتفات، ويشجعها على مواصلة الصعود إلى الطابق الثاني.

كيف يعقل أن تحتفظ الأشياء بالذكرى؟ . كيف يعقل أن تثير فينا الجمادات كل تلك الحركة . .

كل ذلك الانفعال؟ . لماذا يتضاعف نبض الشرايين لمرأى حائط مقشر أو درجة مكسورة؟ . .

هل للجماد روح أيضا . هي إكسير ذاكرة كل من يصادفها . يلمسها . يراها؟

تسمرت أمام الباب . من أدراها أنه يقيم هنا . لماذا قادتها قدماها إلى شقته القديمة مساء يوم أحد ممطر حزين؟ مازالت كلماته الأخيرة ترنّ في مسامعها كرجع الصدى . أنا بحاجة إليك . .

لماذا يحتاجها . الآن . ما الذي حصل أثناء سفره؟

أغمضت عينيها مستجمعة كل طاقتها . ضغطت على الجرس . فتحت عينيها . مرت برهة . ظل الباب مغلقا .

ضغطت مرة أخرى بحنق . شعرت بوهن . همت بالرحيل . فتح الباب أخيرا .

كان هناك، يمسك مقبض الباب الموارب . ينظر إليها مندهشا بعينين منتفختين يشوبهما احمرار . دعاها إلى الدخول بصمت الإشارة . اعتذر ليذهب إلى الحمام .

لم تكن قاعة الجلوس كما عهدتها . تغير بلاطها وطلاء الجدران وكل الأثاث . . أو تقريبا . صار طابعها عصريا فاخرا بذلك الخليط بين الألوان النارية لبعض الجدران والألوان القاتمة للأثاث . جلست على أريكة بنية داكنة . على المنضدة الكبيرة المنخفضة كأس فارغ وقارورة ويسكي خاوية .

جهاز التلفاز البلازما الضخم معدل على قناة أمريكية للأخبار. كانت الصور تمر صامتة، أما الصوت فكان صادرا عن جهاز ستيريو. وصلات عزف منفرد على العود للفنان العراقي نصير شمة. تعرفت إليها من الوهلة الأولى. أهداها ذاكر نفس القرص بعد أسبوع من تعارفهما. يعشق الموسيقى الصامتة.

الكلمات تشوش نقاء الموسيقى وتسلبها عمق معانيها. هكذا يقول دائما. لم تكن تشاطره الرأي تماما ولكنها تستمتع باصطحابه في رحلات موسيقية يغمر صمتها كلام العيون وحديث القبل.

ماذا تفعل هنا؟ هل جاءت لتبرر وجود نذير بشقتها؟ ولماذا تبرره، لقد خرج ذاكر من حياتها منذ خمس سنوات؟ بأي صفة يحاسبها على تصرفاتها؟ ليس من حقه ذلك. ولكنه لم يحاسبها. انسحب من شقتها دون سبب مفهوم. هذا يعني أنه لم يكن راضيا على ما رأى. ربما انسحب فقط ليتركها على راحتها. كان عليه أن يستأذن قبل الرحيل..

تفاقم الألم في رأسها. سمعت خرير الماء يتدفق من رشاش الحمام. أحست بحرارة تجتاح جسدها.

– مرت ساعة وأنا أتحدث. أهذي كالمجنون. أكاد أقسم بأنك لم تسمعي شيئا مما كنت أقول. أجدك شاردة البال منذ وصلت. ماذا دهاك؟ لماذا تغيرت؟ كل هذا لأنني أردت أن تكون علاقتنا أكثر جدية؟ موقفك غريب فعلا يا نجلاء. غيرك من النساء كانت ستسعد لو عرض

عليها الزواج. أريد أن أعلم هل بي عيب يجعلك تنفرين مني؟ أم هل في حياتك شخص غيري؟

نظرت إليه في هدوء. تكلم نذير بصوت خافت، لكنه كان شديد الانفعال. أرادت أن تضع معه النقاط على الحروف منذ دخل شقتها، لكنها لم تجرؤ. لاحظت عليه انكسارا غير معهود.

كان صوته منكسرا وهو يتحدث عن مشاغل الحياة ومشاكل العمل. .لكنها تعلم أن سبب شجنه أمر آخر. كان عليها أن تستغل لحظة انفعاله وأيضا سكره الذي بدأت تلوح معالمه بعد أن احتسى عدة كؤوس.

– نذير، أنا أكن لك معزة خاصة، تعلم هذا، ولكن اتفاقنا منذ البداية كان واضحا. لم نتواعد على الارتباط. أخبرتك أنني رافضة لمبدأ الزواج ثانية. كانت علاقتنا جميلة ومريحة لكلينا جسديا وروحيا. منذ مدة بدأت تعكر صفوها بالحديث عن «علاقة جدية» و«ارتباط محتوم».

لو كان بك عيب لما قبلت بك صديقا منذ البداية، وأيضا لو كان هناك شخص آخر في حياتي.

أثناء زواجي فهمت أنني لم أرتبط بمنير إلا لأرضي عائلتي وأفحم الجيران ومن يدور في فلكنا. أرضيت الآخرين بما فيه الكفاية. كنت أعيش حياتي عبرهم.

أي مسرحية هزلية – درامية يعيشها الناس. كلنا نخشى الآخر، نتوجس خيفة من رد فعله. نعدل تصرفاتنا وحتى خياراتنا المصيرية على هواه. الآخر غول. الآخر مفزع.

ألم ندرك أن الآخر، ليس في النهاية سوى أنا وأنت. أن الآخر له نفس المخاوف أيضا. .نفس الكوابيس. لم لا يعتق بعضنا البعض من رق الوجل، حتى نعيش الحياة خالصة. .حتى يكون وجودنا ملكا لنا وليس وجودا افتراضيا نعيشه بوكالة. . بتفويض من الآخرين؟

لست أنا من تغير، بل أنت. صحيح أنني متوترة بعض الشيء في الأيام الأخيرة. كنت فعلا بحاجة إليك، إلى وجودك حذوي يهدؤني ويطرد عني الوحدة والضياع. لم أجدك وأنا في أمس الحاجة إليك.

في تلك الليلة اختلطت عليها المشاعر. أيام أمضتها. . وهي تحاول ترتيب ما عبثت به الذاكرة. احتواها التعب. . واحتوت يداها المضطربتان وجهها المرهق. .

أسرع نذير نحوها. ضمها إليه بحنان. هل يجب أن يرى الرجل دموع المرأة حتى تتحرك فيه رغبة الحماية. . روح الأبوة؟ ربما. . لا تدري. .

لم تذرف ليلتها دموع ضعف، بل دموع ارتياح. سهرا حتى أواخر الليل يداعبان ذكرى نهايات الأسبوع التي أمضياها معا في الجنوب التونسي. .نفطة. .جرجيس. . جربة. .هناك أين تتحد الشمس والبحر والرمال لتغني بلغة الطبيعة أهزوجة حب الحياة. . أوقات جميلة اقتسما خلالها لذة السفر. .والجسد.

شربا. .تحدثا. .ضحكا. .ثم صمتا. .

طلبت منه أن يمضي ما تبقى من الليل معها.. كصديق. تجاوزت حاجتها إلى الجسد. كانت فقط بحاجة إلى حضور ما.

لم يسألها. لم يحاول أن يعرف سبب تغيرها المفاجئ. احترم رغبتها في الكتمان.

لا بد أنه فهم كل شيء في الصباح، حين رأى ذاكر أمام باب الشقة..

– آسف لم أعرض عليك أن تشربي شيئا. ظننت أنك ستتصرفين بمفردك.. كما كنت تفعلين.. هل نسيت الشقة؟

أخرجها صوته من بؤرة خيالها. وقف أمامها، منشفة تعصر نصفه الأسفل وأخرى تحضن كتفيه. قطرات ماء تنزلق في دلال على صدره اللامع. صدر لم تزرعه الطبيعة شعرا.. أما هي فكانت تعشق زرعه قبلا. كم كان جذابا في تلك اللحظة. كل شيء فيه يدعوها.. يثيرها..

لماذا يعتقد الرجل أن له الحق في تعرية صدره؟ لماذا يظن أن جسد المرأة فقط يثير الشهوة؟

هل تعمد سكب بنزين العري ليثير حريق الشبق فيها؟ ألم تكن تلك لعبته منذ خمس سنوات؟ ألم يكن يستعذب التجول في شقته في ثوب آدم ناثرا خلفه بذور الغواية؟

لطالما همست إليه بعشقها لجسده وخصوصا لصدره. أدركت خلال علاقتها معه أن الصدر الخالي من الشعر يثيرها.. إلى حد الجنون.. إلى حد المجون..

كان النور خافتا بالقاعة. .نور يحضنه غشاء أحمر. نظرت إلى الأعلى. الثريا الحمراء لا تزال هناك تلتهم صدر السقف.

– ماذا تفعل؟ قالت له وهو يهم بدخول محل لبيع الثريات.

– سأشتريها. ألم تقولي إنها أعجبتك؟

– كفاك جنونا. قالت له وهي تنفجر ضحكا. لقد مررنا أمام المحل صدفة ولم تكن لدي مطلقا نية اقتناء الثريات.

– ولكنك قلت إنها تعجبك.

– نعم تروق لي، أحب شكلها الدائري ولونها الأحمر. ولكنني لا أرغب في شرائها.

– من قال لك إنك ستدفعين شيئا؟ جذبها من يدها ودخلا المحل.

خرجا منه بعد قليل وبين يديه صندوقان من الكرتون.

– علقيها في غرفتك. أما أنا فسأثبتها في قاعة الجلوس لأنني أكاد لا أفارقها حين أكون بشقتي.

عندما لا يجمعنا مكان واحد، سيجمعنا لون واحد. . لون العشق. .لون التيه المجنون. .

ستكون تلك الثريا سرنا الأحمر. .الدماء التي تسري في شرايين ارتباطنا وتتحدى المسافات. .

وعدته بذلك. لكنهما انفصلا بعد شهر. ظلت الثريا في صندوقها إلى أن تزوجت. جلبتها مع بقية أمتعتها إلى محل الزوجية. طلبت من وليد أن يثبتها بغرفة النوم.

هل كانت تلك خيانة منها لمنير؟ هل مجرد الذكرى خيانة؟ هل تجوز الخيانة بالفكرة؟

إن كان الأمر كذلك، أليس كل البشر إذن خونة؟

هل كانت أنفاس ذاكر.. همساته.. تتخفى خلف السدول الأرجوانية.. تراقبها عن كثب.. تعطّل تجاوبها مع منير.. ثم تجهز بحنكة سفاح مأجور على آخر جذوة شبق يحاول زوجها إذكاءها؟

يبقى الشك قائما وباب التساؤل مفتوحا. ولكن الفتور بينهما بعد بضعة أشهر من الارتباط المقدس كان يقينا حاولا في البداية تجاهله إلى أن صار ماردا حطم كل مراتيج اللامبالاة.

«طبيعي أن يصيبكما الفتور، لأنكما لم تستمتعا بشوق الاكتشاف بعد الزواج». كان هذا تفسير أسماء لظاهرة التبلد العاطفي الذي ألم بهما. همت أن تسألها إن كانت تعتبر متعة الاكتشاف أزلية.. خالدة.. سرمدية.. وإن كانت ما تزال تنعم بها مع ماهر زوجها؟ ولكنها عدلت عن ذلك لما مرت على وجهها سحابة ارتباك وغيمة شك. فضلت أن تتركها في أمان قناعاتها. ما الفائدة في مرمطة فكرها القانع بلقمة المسلمات في عناء التنقيب عن الأسباب والمسببات بين كثبان فلاة التفلسف المضني العقيم الذي لا يغني من جوع؟

«غير معقول، يشتكي «حزب الخضر» في العالم من الارتفاع الكوني للحرارة وأنتما من انخفاضها. ما عليكما سوى الاقتراب من ثقب الأوزون حتى يلسعكما هجير الأشعة فوق- البنفسجية. قالت لها آمال ضاحكة ثم أضافت. نجلاء، أنت تعلمين رأيي بالموضوع. الزواج

وصفة فعالة ينصح بها للشفاء من علة العشق، أما ورم الفتور الجنسي فلا يستأصله إلا مشرط الحرية».

«لا تجزعي يا نجلاء، هناك علاج لمثل حالتك». قالت لها أحلام ثم أضافت مفسرة: «بعد ولادة آنجي، واجهت مع وائل نفس المشكلة لبضعة أشهر. صحيح أن حبنا ساعدنا على تجاوز المحنة ولكنه لم يكن كافيا. اضطررنا لعيادة «سيكسولوغ»، حكيم مختص في المسائل الجنسية.

صدقيني بعد عشر جلسات علاجية بعيادته تحسنت الأمور، بالطبع يجب أن نكون واقعيين وألا ننتظر استعادة جنون شهر العسل ولكن تصوري أننا صرنا نمارس الحب مرة على الأقل كل أسبوعين، أي مرة بعد كل عيادة». سألتها يومها مازحة: «مع من، مع الحكيم أم مع وائل؟».

أزال المنشفة عن كتفيه. طفق يجفف بها شعر رأسه وهو متجه نحو المطبخ. عاد حاملا طبقا عليه كأس وقارورة نبيذ أبيض. شعره مشوش كمشاعرها. يغري يديها بخوض تجربة اللمس المحظور. اقترب منها وهو يضع الطبق على الطاولة المنخفضة. لفحت أنفاسه الساخنة وجهها. اخترقت رائحته كل حواسها. أذابت نظرته جليد الحدود المصطنعة.

– حسنا يجب أن أتركك برهة لألبس ثيابي. لا يعقل أن أستقبل ضيفتي وأنا نصف عار.

لم يتغير. تلك التلقائية الماكرة في حركاته. ذلك المزاح المثقل بالمعاني في كلماته. هو نفس الرجل

الذي أسرها ببساطته المعقدة. كادت تتوسل إليه بأن يبقى.. أن يقاسمها من جديد أسرار عريه.. ولكن قوة ما منعتها..

حين دخلت مقرّ المجلة عشية يوم السبت، لم تكن تتوقع أن تجد أحدا هناك. كان هذا ما تبحث عنه في تلك اللحظة. مكان مغلق فسيح صامت، يحمل جزءا من حياتها ولكنه لا يفرض عليها كل تفاصيلها الماضية. ربما أرادت أن تخط بعض السطور، أن تتنفس بعد كبت دام أسبوعا كاملا.

سمعت صوتا وهي تتجه نحو مكتبها. حسبته من وحي خيالها. عاد الصوت إلى الظهور وهي تفتح باب مكتبها. التفتت، كان الصوت آتيا من مكتب رؤوف. استغربت وجوده هناك لكن سرها الأمر رغم حاجتها إلى الانعزال. لم يجدا فرصة ليتحادثا على انفراد هذا الأسبوع.

سارعت إلى مكتبه وفتحت الباب كي تفاجئه.. لم يكن رؤوف بمفرده.. كانت سهام هناك.. جالسة على طاولته تلف بيديها رقبته، وبساقيها خصره.. تلتهم وجهه قبلا.. كانت تحتويه.. داخلها.. في نزهة مسروقة.. داخل حدود الشهوة.. خارج أسوار الواقع.. يكتمان معا أنّات الخطيئة.. فحيح الشبق الحيواني..

انصرفت مسرعة دون التفات. احتمت بمكتبها. أشعلت النور. أسندت ظهرها إلى الباب. تسارعت دقات صدرها. استنشقت بعمق. أي كابوس رهيب. اختلطت في ذهنها الصور. طفت صورة بابا كامل على

سطح الذاكرة. لم يكن منفردا. لِمَ كان المشهد لديها مريعا؟ أي مشهد؟..شخصان يتبادلان العشق..ما ضرها في ذلك؟

طرق على باب مكتبها. أسرعت الخطى. جلست على كرسيها. أمسكت بجانبيه بشدة لتشل ارتجاف يديها. كتمت أنفاس حزن سحيق.

- تفضل.

دخل رؤوف وهو يجر قدميه. جندي جريح عائد من ساحة الوغى يجر أذيال هزيمة غير متوقعة.

- نجلاء، لا تؤولي خطأ ما شاهدته الآن..كانت فقط..

- أرجوك يا رؤوف، أنت لست مضطرا إلى التبرير. أنت حر في تصرفاتك. أجابته بصوت ميت.

- لست مضطرا للتبرير، أنا بحاجة إليه، تماما كما أنا بحاجة إليك.

- لست بحاجة إلي، أنت بحاجة إلى إشباع نهمك الجنسي، قلت لك هذا مرارا. يبدو للأسف، أنك قررت أن تقمع الجوع مع أي جسد قد يعترضك في الطريق. لم تفكر أنك قد تدهس أيضا ذلك الجسد. سهام..لماذا هي بالذات؟ ألم تتعلم قدماك تفادي دهس الأزهار؟

- لا أفهم شيئا، هل ترثين لحالها أم تغارين منها؟

- لن تفهمني أبدا.كنت أتوسم فيك الشهامة. تعرف قصتها وتعرف رهافة حسها. أخبرتني سابقا أنها تغازلك، سألتك حينها إن كنت تحبها. يومها أكدت لي العكس فطلبت منك ألا تظلمها. تراها باسمة طوال النهار، تظنها صلبة، قوية الشكيمة، ولكنها أهش من الزهور.

– إياك والغلط نجلاء. لست أنا من سعى إليها، أقسم لك إنها هي التي استدرجتني إلى المجلة وهي من ارتمى علي كما ترتمي الكواسر الجائعة على أشلاء الفريسة. لماذا يتهم الرجل دوما بالتحرش والنهم الجنسي؟ تظنين أنك تعرفينها. .إنها صديقتك؟ كيف لم تتفطني إلى أنها افترست معظم ذكور المجلة. .حتى المدير الجديد، سي ذاكر، حاولت الإيقاع به في شراكها منذ اليوم الأول الذي وطئت فيها قدماه المجلة. كنت تعتقدين أنها توزع البسمات مجانا. .بل كانت تستخلص أجرتها عينا من أجساد عشاقها. .

– كفى. .اصمت. .لا بد أنك تهذي. .سهام تحب زوجها. .يستحيل أن تفعل ما ذكرت. .هل تدنسها لتعفف نفسك؟

– يمكنك أن تتأكدي من أقوالي. .اسألي عم فرج الساعي. .اسألي أي موظف في المجلة. .أرجوك نجلاء أنا لا أحاول أن أحملها كل الخطأ، أنا أتفهم ظروفها، سهام تنتقم لجسدها من زوجها، تبعثر كرامته كما بعثر وجودها، تشوه رجولته كما شوّه سعادتها. .وفي نفس الوقت تجمع ومضات اللذة التي تحصدها من أجساد الراغبين، تحاول أن توقد منها مشكاة سعادة آنية. . زئبقية. .هي بحاجة إليها لأنها الضوء المتقطع اليتيم الذي ينير شواطئ حياتها المظلمة. .أنا أعذرها. .ولكن لن أرضى أن ترفعيها إلى مرتبة قديسة وأن تنزليني إلى سفلية الشيطان. .

لم تطفئ تبريراته لظى غيظها. تصرفه خيانة لصداقتهما واستهتار بصداقتها مع سهام. كانت تستعد إلى طرده من

مكتبها حين سمعا ضجيج تصفيق بطيء متواتر، تعلقت أنظارهما بالباب دخلت سهام وفي عينيها حمرة من نزف الدموع كانت تصفق وتضحك باستهزاء..

خرج صوتها مرتعشا وهي تقول بنبرة هازئة، حانقة.. بعد أن توقفت عن التصفيق..

– برافو..برافو.. البشر لهم إلاه واحد..أما أنا فأصبح لي الآن ثلاثة آلهة..تراقبني..تسجل أخطائي ثم تحيطني بالمغفرة..ألست محظوظة..

صمتت سهام قليلا كمن يستجمع طاقته ثم التفتت إلى رؤوف وقالت:

– شكرا على تفهمك..كم أنت رحيم..إذن تعتبرني مومس المجلة..نسيت أنك بدأت تطاردني منذ أكثر من سنة. ربما بعد أن تأكدت من رفض نجلاء لك.

أتنكر أنني منذ مدة بت أجدك في كل مكان أذهب إليه.. حين أزور نجلاء تلحق بي في مكتبها وحين أذهب لجلب قهوة ألقاك خلفي قرب آلة القهوة.. تتعمد ملامستي بأي طريقة..كلما توقفت قليلا لمحادثة أحدهم، تظهر لي من أي زاوية كالعفريت. وإن لم تتبعني قدماك، تلاحقني نظراتك المشتعلة. الآن تدعي أنني من يلاحقك، أي رجولة هذه؟..لن يتغير الأمر مطلقا.. حتى مع المثقفين أمثالك..دعاة التحرر والانفتاح.. حين يجود الرجل بجسده يعد ذلك رمزا للرجولة وفرصة لتعميق التجربة..وحين تمنح المرأة جسدها لمن تعشق ترمى بالتفسخ الأخلاقي وتعتبر عاهرة والأغرب من

ذلك أن أول متطوع لرجمها بالحجارة هو الرجل الذي عشقته. الرجل الذي أهدته دفئها على طبق من حب.

تريد أن تلعب دور البطل المتفهم؟ أنت لم تفهم شيئا. كدت أصدق أنك تحمل نحوي بعض المشاعر.. لست سوى أناني حقير. إياك أن تحاول الاقتراب مني مجددا.

غادر رؤوف المكتب دون أن ينبس بحرف واحد. أحدث غلقه للباب الخارجي للمجلة فرقعة مدوية.

عندها التفتت سهام إليها.

– وأنت نجلاء من أين تستمدين الحق لتقرري في مكاني. انزعجت كثيرا حين فاجأتني مع رؤوف وأيضا حين أعلمك بأنني أغازل بعض موظفي المجلة؟ منذ متى أصبحت قديسة؟ ألست من يحارب من أجل حرية المرأة وحقها في امتلاك جسدها ومصيرها؟ أليس هذا شعارك الذي طالما رددته على مسامعي؟

صداقتنا لا تمنحك الحق في أن تتدخلي في علاقاتي الخاصة ولا في اختيار أصدقائي. إنه جسدي وأنا حرة في التصرف فيه كما يروق لي، حرة في أن أمنحه لمن أشاء..

لست محتاجة إلى الحماية، ربما أنت في حاجة إليها. نجلاء سليلة العائلة البرجوازية، ابنة الأم المتعلمة والمحامي المستقيم المثقف الواعي بحقوق الإنسان.. حقوق الطفل. الرجل الذي يحب ويحترم زوجته وابنيه..

هل عنفك والدك يوما؟ هل سبق أن آلمك؟ هل ضربك على كامل أنحاء جسدك بعصى الزيتون حتى أدمى روحك بعد أن أدمى عظامك ؟ لا طبعا، أنت بنت العائلة المحترمة، أحبك والداك وأحاطاك بكل الرعاية والحنان. .دللك والدك وجعلك أميرة الفتيات. .

هل تريدين أن تعرفي من هي سهام. .هي طفلة العنف والقهر والخوف. .بدأ أبي يعنفني منذ بلغت الخامسة من العمر. .كان العنف لغته الوحيدة مع أمي ومعي ومع بقية إخوتي. .كان يعود كل مساء إلى المنزل وهو يترنح سكرا ويتعلل بأتفه الأسباب لتعنيفنا لفظيا وجسديا. .بعد ذلك تجده ينتحي ركنا من المنزل فينتحب قليلا ثم يعود إلينا محتضنا. .معتذرا. .نادما على ما أتاه. .

كنت في البداية أتهرب من ضربه وأتألم له. بمرور الزمن وجدتني أتلذذ به بل وأسعى إليه. . نعم بت أتعمد عصيان بعض أوامره حتى يضربني. .كنت محتاجة إليه. .إلى أن يلمسني. .إلى ذلك الحنان الذي يغدقه بعد كرم العنف. .أصبحت لغة العنف بالنسبة إلي هي لغة الحب. . .

أنا جبلت على العنف نجلاء . .فكيف تستغربين أن أتمسك بزوج يعنفني؟

ذلك الغر يدعي أنني حاولت إغراء ذاكر، لمجرد أنه رآني أرحب به في مكتب سي شريف. . صدقيني. . ما إن علمت بعلاقتكما الماضية حتى صار بالنسبة إليّ شخصا محرما.

آه. . نسيت أن أخبرك أنني تلقيت من محمود الصفعات منذ الخطوبة ولم يمنعني هذا من الزواج منه. . أنا أحبه فعلا واعتدت على عنفه. .

أما علاقاتي مع غيره من الرجال فمردها إهماله لي بسبب تعوده على مخالطة بنات الهوى. . أنا بحاجة إلى أن أحس بوجودي. . بأنوثتي. . بأنني مازلت قادرة على إثارة الرغبة. . لم أفعل ذلك لأنتقم من محمود. . كما يدعي ذلك السافل. . أنا أحب محمود. . أحبه. .

انهارت سهام على الكرسي قبالتها. لم يكن أمامها سوى أن تسرع إليها وتحتضنها بين ذراعيها وتربت عليها.

هل كانت تحاول إقناع نجلاء أم إقناع نفسها؟ لماذا لم تخبرها بهذا الماضي الكئيب مع والدها؟ لم تستوعب جيدا ما قالته سهام. لم تفهم كيف لشخص أن يتصادق مع العنف. . أن يحبه. . وأن يتعايش معه حتى وهو قادر على رفضه. لم تفهم أيضا كيف تزعم أنها تحب زوجها وتخونه في ذات الحين.

عادت إليها بعض كلمات قالتها سهام في أحد الأيام «. . حين يدعو الملل نفسه طرفا ثالثا في لعبة الزواج، تصبح أتفه الأسباب مناسبة للخصام وأتفه التبريرات جائزة لارتكاب الغش. . ».

سمعتها إلى النهاية. . دون أن تقاطعها. لم ترغب في أن تخبرها بأن الألم ليس وليد العنف الجسدي فقط. . بل إنه قد يكون وليد أي لحظة من عمر الإنسان. . أي حادثة في حياته. . حياتها لم تكن ذلك العالم المشمس

البديع. والسحب التي مرت على طفولتها كانت أقتم مما قد يخطر ببالها.

كانت قد احتست كأسين حين التحق بها ذاكر بعد أن انتهى من ارتداء ملابسه. سبقه إليها عطره الذكوري المثير فلم تفاجأ بحضوره.

– اعتذر مرة أخرى لأنني جعلتك تنتظرين. ولكن للأسف ستنتظرينني مجددا لأنني سأحضر لك شيئا تأكلينه.

– لا تتعب نفسك لست هنا لأتعشى.

أشار عليها بالجلوس. لفحت سبابته شفتيها آمرة إياها بالصمت ثم اختفى بالمطبخ.

لمسة مثيرة. ربما كانت مدروسة. مخططا لها عن سابق إصرار وترصد. توهج جمرها. حاولت أن تتلهى. حانت منها التفاتة إلى مكتبته الصغيرة ذات الرفوف الغليظة. هي القطعة الوحيدة التي تركها من أثاثه القديم. تقدمت إليها بفضول المهووس بحب المطالعة. استرعى انتباهها كتابان وضعا منفردين على أحد الرفوف، أحدهما يغلب على غلافه اللون الأحمر والآخر اللون الأسود. تسارعت دقات قلبها. كان حدسها في محله. إنهما روايتاها.

وجدت في كل منهما إهداء من شقيقها وليد إلى ذاكر مؤرخا بتاريخ قريب من تاريخ النشر.

– حسنا أعترف بأنني كنت ماكرا حين أخفيت عنك أن لدي نسخة من روايتيك.

التفتت إليه وفي يديها الكتابان. انتابها إحساس بالخزي وكأنها صبية بصدد سرقة قطعتي حلوى. أرجعتهما مرتبكة إلى مكانهما. وضع طبق الطعام على الطاولة. جلس على الأريكة وواصل الحديث قائلا:

– نعم بقيت بعد رحيلي على اتصال بوليد. .لم تنسي أننا كنا صديقين. هو الذي أرسل إليّ الروايتين على عنواني في أمريكا. قرأتهما عدة مرات. أنا من المعجبين بقلمك. .

صمت قليلا ثم نظر إليها برقة وأضاف:

– حسنا ماذا كنت تعتقدين؟ أنني رميت كل مشاعري في القمامة قبل أن أرحل؟ آسف لم تكن لي قدرتك الخارقة على النسيان. إنها سنة كاملة كانت من أجمل أيام حياتي. ثلاثمائة واثنان وخمسون يوما. لم أخبرك بأنني كنت أعد الأيام التي اضطررنا فيها إلى الافتراق.

نحن الرجال لا نحسن الحديث عن الحب. .نعيشه فقط. .أحيانا دون أن نتفطن إليه. .دون أن ندرك أننا وقعنا في الشرك. .والأخطر من ذلك هو أننا حين نحب لا ننسى أبدا.

جلست قبالته وقالت بصوت حاولت أن يكون محايدا:

– لماذا لم تتصل بي وأنت في الخارج؟ كان يمكن أن نبقى صديقين.

– فكرت في ذلك كثيرا. عزمت على الاتصال بك. ثم خشيت أن يزعجك الأمر. استشرت وليد، لكنه أشار علي بألا أفعل. ارتأى أن ذلك قد يزعجك ويؤثر عليك سلبا. اكتفيت بأن أسأله من حين إلى آخر عن أحوالك.

– إذن كنت تعلم منذ البداية بأنني أعمل بالمجلة.

– طبعا.

– حين أتيت إلى شقتي مؤخرا، قلت إنك تحتاج إلي.. لماذا ؟

– أردت أن أخبرك بسبب سفري المفاجئ وبسبب عودتي النهائية إلى تونس أيضا. في الحقيقة السبب واحد. أخبرتك عن الجانب العملي في حياتي بعد السفر لكن لم أبين لك بقية التفاصيل.

منذ وطئت قدماي التراب الأمريكي انغمست في العمل. كان ذلك لي خير علاج. شعرت أنني عاجز عن إقامة علاقة حب جدية مرة أخرى. أقمت بعض العلاقات العابرة. رغم كل شيء بقي لدي بصيص من الأمل بأن تغيري رأيك وتتصلي بي. ثم علمت بأنك تزوجت..

كان خبرا في منتهى القساوة ولكن كان له الفضل على الأقل في أن أدرك بأنني خسرتك نهائيا. بعدها بمدة تعرفت على ساندرا، شقيقة حسان، الصديق المصري الذي أخبرتك بأنني تركت له إدارة مجلتي في لوس أنجلوس، كانت تحبني إلى حد الجنون. ثم..

توقف فجأة عن الحديث. أحاط رأسه بيديه مواريا قسمات وجهه. أزاح يديه ليكشف عن وجه ينطق ألما. واصل الحديث بصوت متهدج:

– أخبرتني بأنني حب حياتها. طلبت مني أن أتزوجها عدة مرات، تفكيرها أمريكي رغم أصلها المصري. لم أكن مستعدا للزواج رغم أنني كنت أكن لها بعض

المشاعر. فكرة الارتباط كانت بعيدة جدا لأسباب أعتقد أنك تعرفينها.

أخبرتني في أحد الأيام بأنها حامل. عرضت عليها يومها الزواج، لكنها رفضت أن يكون الدافع إلى ذلك حملها. بعد بضعة أسابيع أسرت لي بموافقتها. تزوجنا. ثم..لم يمض على الزواج بضعة أشهر..و..

صمت مرة أخرى. استجمع قواه. واصل الحديث:

– تم اغتيالها من طرف أحد العنصريين المتطرفين الذين كانوا يكنون العداوة للجالية العربية هناك وخصوصا لي أنا لأنني مدير المجلة العربية الأكبر صيتا بالمنطقة..

كنت أنا المستهدف بالاغتيال. يومها استعارت سيارتي لقضاء بعض الشؤون. كان القاتل يترصدني منتظرا مرور السيارة. صوب بندقيته نحو السائق دون أن يتثبت من هويته..بعد وفاة ساندرا مع الجنين كان الألم أقوى من أن أتحمله زد على ذلك إحساسي القاتل بالذنب لأنها في النهاية قتلت بسببي. شعرت أنني كنت في غاية الأنانية وانعدام المسؤولية، لأنني سبق وأن تعرضت إلى التهديدات من تلك الجماعة العنصرية ولكنني لم اتخذ أي إجراء لضمان سلامتها..كنت فعلا غبيا..لم أعد قادرا على مواصلة العيش هناك..

صدقيني يا نجلاء، لقد تذكرتك خلال تلك الفترة العصيبة.. تذكرت تشبثك بالعيش في وطنك..أدركت أن العربي مهما طال به العيش في بلاد المهجر ومهما ارتفعت قيمته وعلا شأنه لن يسعه أن يشعر يوما أنه في وطنه حتى وإن اعترفت به سلطات المهجر ومنحته جنسية بلدها. أدركت أن الجنسية لا تعدو أن تكون حبرا

على ورق وأن الواقع أبشع بكثير مما قد يتصور خيالنا الساذج.

هل تعلمين بأنني اضطررت إلى إجراء اتصالات مع مسؤولين كبار هناك حتى أجبر الشرطة المتهاونة على السعي للقبض على الجاني؟

تهاون الشرطة الأمريكية كان متعمدا وكأنها مؤمنة بأن ما حصل كان طبيعيا وأن الجاني ليس مجرما. أمضت الشرطة قرابة سنة في التحريات. تم إعلامي في بداية الأسبوع المنقضي بأنه قبض أخيرا على المجرم وبعض مشاركيه ممن خططوا لهذا الجرم الشنيع. كان عليّ أن أسافر على جناح السرعة لإتمام بعض الإجراءات لدى شرطة لوس أنجلوس باعتباري زوج المجني عليها وأحد الشهود على تورط تلك الجماعة في عملية الاغتيال.

صمت ذاكر لكن صوت ألمه كان يملأ أرجاء القاعة كما ملأ أرجاء روحها. أي مكان للكلمات أمام هذا القدر من الألم. أسرعت إليه. جثت على ركبتيها أمامه واحتضنت في صدرها رأسه المتعب. .لعلها تخفف عنه حمل الذكرى.

8

شمس قوية تتوسط كبد السماء. عجزت أصابعها الذهبية المشتعلة عن طرد لسعات الصقيع الخريفي. أوائل شهر نوفمبر تفتح الباب على مصراعيه لبرد جليدي لا يرحم.

أحكمت إغلاق أزرار معطفها الصوفي الأسود. نزلت من السيارة. دفنت يديها المجمدتين في جيبي معطفها. الثانية بعد الزوال. الساعة العملاقة لا تخطئ.

بدأت رحلتها اليومية في شارع العاصمة الكبير في اتجاه المجلة. لم تشعر برغبة في الذهاب رأسا إلى هناك. ينبغي أن ترتب دفاتر أفكارها.

ساقتها قدماها إلى مقهى «لونيفار». دعتها كراسي الرصيف إلى الجلوس ولكن البرد كان أقسى من أن تقبل الدعوة.

جلست داخل المقهى خلف الواجهة البلورية، في نفس الطاولة التي اعتادت احتلالها مع صديقاتها.

كأنها كانت تنتظرها. بدأت تتفرس في وجوه المارة.. فيما خلف الأقنعة.. وراء الظلال.. نساء ورجال.. شيب وشباب.. لكل حكايته.. لكل آلامه وأفراحه.. لكل ماضيه ومشاريعه. طلبت من النادل «كافي كرام». عليها أن تفكر قليلا في ذلك العرض الذي تلقته منذ ساعات.

حين استيقظت ذلك الصباح شعرت برغبة في مواصلة الاختباء في دفء فراشها. هاتفت سي شريف لتعتذر

له عن ضرورة تغيبها في الفترة الصباحية. أعلمها سي شريف بأنه كان سيتصل بها ليخبرها بأمر مهم. استفسرته عن الأمر. أعلمها بأنه تم قبول مطلبها في قضاء فترة تربص بستة أشهر في باريس لدى إحدى المجلات الفرنسية المتوأمة. كادت تنسى ذلك المطلب. سجلته منذ مايفوق السنة. حسبت أنه رفض، أمام تأخر الرد. مصادفة غريبة أن يقبل مطلبها الآن بالذات.

جاءت القهوة أخيرا مع ابتسامة النادل كمال. حرارتها لاذعة كما تحبذها. أمسكت بيديها الفنجان الكبير. بدأت الحياة تنبض من جديد في شراينها، والصور تتدفق إلى رأسها.

حين خرجت من شقة ذاكر ذلك المساء لم تكن تعلم وجهتها بالتحديد. ألح عليها بأن تمضي الليلة في غرفة الأصدقاء المجاورة لغرفته. تعلل بتأخر الوقت. أما هي فتمسكت بالعودة إلى شقتها.

كانت الساعة تقارب الحادية عشرة ليلا حين أطفأت المحرك. ألقت نظرة من سيارتها على شقة وليد. نور خافت ينبعث من الشباك. حدسها في محله، لم ينم بعد. اهتز صدرها ارتياحا. اعتادت اللجوء إليه وقت الأزمات. إنه الوحيد القادر على تهدئة روعها في أعسر الظروف. تلك الليلة، وجدت نفسها في مأوى السيارات المظلم مثقلة بأطنان من الأسئلة. هذه المرة وليد داخل دائرة الأزمة. .لماذا أخفى عنها وليد بقاءه على اتصال

بذاكر؟ ظل ذلك السؤال يتكرر في ذهنها منذ غادرت شقة هذا الأخير.

رأسه على صدرها. عطره يجتاز حدود حواسها. شعره بين يديها مثل ألمه. سكينة موسيقى العود تغمر المكان. اختفى اختلاف الجنس بينهما في تلك اللحظة. لا وجود لامرأة في تلك القاعة ولا لرجل. فقط هما.. كائنان.. من بني البشر.. تجمعهما لحمة اقتسام الألم.

نهضت. ضغط على يدها برهة. طلب منها البقاء. أصرّت على الذهاب.

حين انصرفت، عادت الأنثى لتحتل خدرها بين ضلوعها. حاولت أن تفسر سبب ما ألم بها من كآبة بعد أن سمعت قصته. ربما سببها إحساسها العميق بمعاناته.. وربما اكتشافها حبه لتلك المرأة. ألهذا لم تداهمها الوحوش هذه الليلة؟ بل إنها لم تزأر.. لم تحاول كسر القضبان..

لم تعلن حتى عن وجودها.. هل أحب ساندرا مثلما أحبها؟ هل اشتعلا بنفس نار العشق؟ هل احترقا بنفس الجنون؟

أسئلة حمقاء. خمس سنوات مرت على انفصالهما. ماذا كانت تأمل؟ أن يبقى راهبا يتعبد في محراب عشقها؟.. لا.. ولكن.. لو صارت إلاها.. للحظات.. لغفرت له كل خطايا علاقاته العابرة بعيدا عنها.. فالجسد ضعيف كما يقول الفرنسيون «La chaire est faible».. أما أن يعشق امرأة أخرى كما عشقها، فهو إثم يصعب

عليها أن تغفره. .لأنها. .بكل بساطة. .لم تعشق أحدا بعده.

تلك الليلة. .أثناء نزولها من شقته. .اعترفت. .للدرج الرخامي. . للجدار المقشر. . للدربزين الحديدي. . وحتى للدرجة المكسورة. .اعترفت بأنها لم تعشق أحدا مثلما عشقته. .

لم ينل شيء من ذلك العشق. .لا مطر شتاء. .ولا شمس صيف. .خمس سنوات.

كان ينبغي أن تتصالح مع ذاتها وكان الاعتراف وحده مفتاح المصالحة. لماذا يمضى الكثير من البشر سنين من حياتهم أو ربما حياتهم بأسرها في نفي البديهيات؟ لماذا نحاول دائما إقناع أنفسنا بعكس ما نحس. .بعكس الحقيقة؟

أو لم يكن من الأيسر عليها أن تواجه الحقيقة ثم تعالج ما يمكنها معالجته؟

ما الذي جنته من كذبة دامت خمس سنوات. .زواج فاشل. .علاقات مرتجفة. .وروح هائمة لا تدري ماذا تريد. .توازن ظرفي هش.

لماذا كانت دوما عاجزة عن الاعتراف بحبها له. . هو بالذات. .بكلمات البشر. .هل كان عليها أن تتصادق مع الجن أو الشياطين، حتى تجد لغة تعكس حقيقة مشاعرها؟

وجدت نفسها أمام باب شقة وليد. في الركن على اليسار، نبتة ذات أوراق خضراء كبيرة.

ابتسمت. كانت يانعة وأوراقها لامعة، برهانا على عنايته بها. اختارت له الشقة وأصرت على أن يقتنيها بعد وفاة والديهما، تحقيقا لرغبتهما. كان ينويان ذلك لكن سبقهما الردى. دفع الثمن من المال الذي تركه المرحومان في حسابهما البنكي.

كان يحتاج إلى الاستقلال والعزلة مثلها.

أرواح حديث بالداخل أزهقتها أغنية «أعدني للحياة». Bring me to life لمجموعة الروك الأمريكية «إيفانيسينس». ضغطت على الجرس. فتح الباب جزئيا. رمقها وليد بنظرات غريبة دون أن يدعوها للدخول. قالت له مستغربة:

– ماذا. ألن تدعوني إلى الدخول؟

– بلى. بلى. تفضلي. لم أكن أنتظر زيارتك. أجابها متعثرا.

– حسنا لم أكن أعلم أن علي تقديم مطلب كتابي مع ثلاث صور شمسية، لزيارة شقيقي. قالت له ضاحكة بعد أن قبلته.

دفعته مداعبة لتبعده عن مدخل الشقة. دخلت. لم يكن وليد بمفرده. كان أكرم هناك.

سمعت صوت غلق الباب. لا تدري كم بقي الثالوث دون حراك. أصنام تتنفس. وليد وأكرم في نفس المكان؟ كان أكرم مستلقيا على الأريكة الجلدية السوداء، بلباس رياضي منزلي، تحت رأسه مخدتان. لم تره منذ ما يزيد عن الأسبوع. منذ قدوم ذاكر. فقد نحوله. بدا في صحة جيدة.

ماذا يعني هذا؟ لماذا لم يخبرها وليد بالأمر؟ لماذا أخفى أكرم عنها هذه الصداقة؟ وليد وأكرم صديقان.. ماذا يعني هذا؟ هل يعقل أن يكون وليد هو الشخص الذي حدثها عنه أكرم؟ غير معقول..لماذا لم تتفطن إلى أي شيء؟ لماذا غابت عنها الأمور؟ ما الذي يحدث حولها؟ ما الذي يجري؟

شعرت بإعياء شديد. تهالكت على أقرب كرسي. خيم صمت رهيب. غرق كل في هواجسه.

ظنت أنها سمعت وقع هشيم. هل قفزت الكلمات من حلقها لتحطم مرايا الصمت؟

– ها أنكما صديقان. رائع. ولكن هل لي أن أفهم لماذا أنا آخر من يعلم؟ ألست شقيقتك يا وليد؟ وأنت يا أكرم ألسنا صديقين؟ لماذا أخفيتما عني الأمر.. لماذا؟..لماذا؟

كم أعادت ذلك السؤال من مرة؟ هل كانت تصرخ.. تهذي.. تبكي؟

– نجلاء أرجوك لا تغضبي، سأفسر لك كل شيء. قال أكرم بنبرة يائسة.

– لا أكرم، أنا من ينبغي أن يقدم تفسيرا. قال وليد بصوت حازم لا يخلو من الحزن.

– هل ستفسر لي أيضا سبب إخفائك عني استمرار اتصالك بذاكر..أي أسرار أخرى دفنت في جعبتك.. هل هي ليلة الاعترافات؟

لا..لا..لست مضطرا..أتدري لماذا؟..لأن ما قد تسر به الآن سيأتي متأخرا مثل الجنين الذي لم يولد في

أوانه. .فخرج ميتا. .لم ير النور. .لم يضف إلى الحياة حياة. .لم يترك سوى الحسرة والأسى. .ماذا سأجني من كلام كان ينبغي أن يقال منذ زمن؟. .لا أفهم شيئا. .

شعرت باختناق. قفزت من الكرسي. توجهت نحو الباب. لم يستوقفها وليد. غادرت الشقة وكأن الشيطان في أعقابها.

طيور شارع بورقيبة تنشد تعاويذها. ترسم بأجنحتها طلاسم البقاء. تعود إلى أعشاشها. تطعم فراخها عشق المكان. تحلق من جديد في سماء العاصمة. تتمتم صلوات الحمد للحياة.

ترشفت قهوتها ببطء شديد. لم يزعجها صخب المقهى. لم تسمع ذلك النقاش الحاد بين بعض الشبان حول آخر مقابلة لكرة القدم. .ولا تعليقات مجموعة من موظفي البنوك القريبة حول وضع البورصة العالمية وتداعيات الأزمة المالية التي يشهدها العالم. .ولا عبارات العتب الجارحة التي يتقاذفها عاشقان جلسا حذوها.

لم تكن تسمع سوى طنين أجنحة تلك العصافير ترفرف في سماء شارع العاصمة الكبير.

الباب الأزرق الحديدي يكسوه الغبار. أصدر فتحه أزيزا غير معهود. الحديقة الأمامية في حالة حسنة رغم ظهور بعض الأعشاب الطفيلية. ساحة المنزل المغطاة نظيفة. بتلات الورد وبعض نباتات التزويق مبعثرة في

أركانها، زادتها رونقا. زرعتها ماما زبيدة. أحاطت بها تلك الساحة الأمامية.

تشعر بنفسك في الفردوس وأنت جالس هناك على أحد كراسي الخيزران، تحيط بك الخضرة والورود من كل مكان. تلك الحديقة، متعة للعين وللأنف أيضا. كانت تعشق التنزه فيها في المساء، خصوصا في الصيف، حين تتفتح أزهار الياسمين فتغدق شذاها بكرم خرافي على محبي عطر الطبيعة ويعلو صوت الفنان التونسي الهادي الجويني ليغني من بعيد «تحت الياسمينة في الليل.. نسمة والورد محاذيني.. لغصان عليا تميل.. تمسحلي في دمعة عيني..».

هناك في إحدى الزوايا، نبتة «عصفور الجنة». هدية لماما زبيدة من صديقتها المغرمة بالنباتات الغريبة. كانت فعلا نبتة غريبة الأطوار، جلبتها صديقتها من رحلة لها إلى جنوب أفريقيا. لم تزهر إلا بعد أربع سنوات من زرعها.

ربما كانت طائرا فردوسيا مسخته عصا سحرية سوداء إلى زهرة لها شكل طائر عجيب.. وسلبته بذلك أعز ما يملكه.. الحرية. جعلته سجين الثرى مكبلا بسلاسل من طين.

«شجرة المسافر»، شجرتها المفضلة في تلك الحديقة. وقع في حبها بابا كامل بينما كان في مدينة نيس الفرنسية. وجدها في حديقة كريستوف، صديقه المحامي الفرنسي. أخبره أنها شجرة من مدغشقر. عاد إلى تونس ببذورها منذ عشر سنوات. يبدو أنها سميت كذلك لأن أوراقها تحتفظ بالماء، فيرتوي المسافر العطشان منها.

كانت لا تمل التأمل في أوراقها التي تتخذ من الأعلى شكل مروحة يدوية. .شكل ذراعين مفتوحتين. كانت ترى فيها صورة رجل واقف مفتوح الذراعين، كمن يستقبل ضيفا آتيا من بعيد. كانت تعتقد أن ذلك هو السبب الحقيقي في تسميتها «شجرة المسافر».

أي شيء كان يستهويها. .يجذبها. .يمغنطها. .في تلك الشجرة؟ هل كان شوقها اللاواعي للقاء قد ينبلج من غسق المجهول أم كان شهوة الرحلة. .السفر. . الانعتاق؟

نبتة «نوار العشية» التي تتفتح أزهارها متعددة الألوان في بداية المساء الصيفي. .

طفلة، كانت ترابط أمامها منتظرة تلك اللحظة السحرية التي تتفتح فيها البراعم. ولكنها تحلق بخيالها بعيدا ثم تفاجأ بالأزهار متفتحة أمامها. تنزعج وتقسم أنها في الغد، ستراقبها من جديد وستختطف من يد الزمن لحظة تفتحها الغامضة. .ويحصل في الغد ما حصل بالأمس.

فتحت الباب الخشبي الكبير. بقي لامعا رغم مرور يومين على قدوم خالتي خديجة.

أعطتها نسخة من المفتاح بعد شهر من رحيلهما الأبدي. اتفقت معها على تنظيف المنزل مرة كل أسبوعين. خالتي خديجة تعرف كل أركانه. ثم إنها تقيم هناك في مدينة «باردو» وتصل إليه مشيا وتعرف أيضا ما تريده ماما زبيدة. .

كل شيء ينبغي أن يكون نظيفا، لامعا، مرتبا. .«لا تهملي الأركان، خلفيات الأثاث، الأبواب وتحت كل سرير. .لا أريد نظافة حسبي ما ترى حماتي. .».

دخلت. انقبض صدرها. البيت مظلم. فتحت نافذتي بيت الجلوس على مصراعيها. غمرت شمس العاشرة المكان نورا.

ترنيم صوتها يغمر المكان، كأنها هناك في إحدى الغرف، تضع لمساتها الأخيرة لترتيب المنزل. عبق أنوثتها في كل الأركان. تكاد تسمع رنة أساورها الذهبية تغريك كحوريات البحر بالسقوط في حضن أطباقها اللذيذة.

توجهت نحو غرفتها. تجاوزت غرفة والديها. مرت أمام غرفة وليد. حانت منها التفاتة.

كان بابها مواربا..

عادت مبكرة من المعهد أين كانت تزاول تعليمها في السنة الأولى ثانوي. تغيب أستاذ التاريخ في تلك العشية بصورة فجائية. طلب منهم الناظر العودة إلى منازلهم.

لم تضغط على جرس الباب. لا أحد بالمنزل. ماما زبيدة لدى إحدى صديقات الطفولة، في مدينة أريانة لتعزيها في موت والدتها المسنة.

خالتي عويشة، معينة أمها آنذاك، تغادره دائما قبل الثالثة بعد الزوال. أما وليد فلا يزال بالمدرسة.

طفولة الحادية عشرة ربيعا تتصدى لجنون المراهقة طالبة المزيد من الأحلام البريئة. دخلت إلى الحديقة وقلبها مفعم بفرحة العودة المبكرة. يمكنها مشاهدة المزيد من الصور المتحركة على شاشة التلفاز. كان بابا كامل صارما. ساعة ونصف هو الوقت المحدد للتفرج على برامج الأطفال. الثامنة مساء هو التوقيت المحدد للنوم.

توجهت نحو الباب الخلفي الذي يفتح على المطبخ. وجدت المفتاح في مخبئه المعتاد بشباك المطبخ. فتحت الباب ودخلت.

هدوء ثقيل يليه صوت أشبه بالأنين..ارتعدت فرائصها..تسمرت في مكانها خشية إحداث أي صوت..تواصل الأنين يتبعه همس..أصاخت السمع.. كان صادرا عن شخصين..رجل..وامرأة..استجمعت ما أوتيت من شجاعة..نزعت حذاءها..توجهت نحو الصوت والهمس الغريب..اقتربت ببطء..الأصوات آتية من غرفة شقيقها..تبينت بعض الكلمات..

غرفة وليد مغلقة..لا..ليس الباب مقفلا تماما.. كان مواربا..كتمت أنفاسها.. أطلّت من شق الباب.. كان المشهد غريبا..سرياليا..شيطانيا..بابا كامل هناك جالس على طرف سرير وليد..سرواله في الأسفل بين قدميه..امرأة جالسة على فخذيه..فستانها مرفوع..

لا تعرفها..لكن..ذلك الفستان.. ذلك الشعر الأسود القصير ذي التجاعيد..ذلك الصوت الذي تعتريه بحة..إنها هي..الجارة فتحية..زوجة عم سالم.. صديقة أمها الحميمة..ما الذي تفعله هناك؟ لماذا ترتج كمن مسها الجن؟ لماذا تمسك به بشدة..لماذا يضمها..يقبلها..يتأوه..يطلب المزيد؟

لم تفهم ببراءتها الطفولية ما الذي يفعلانه بالتحديد.. لكنها أدركت أنهما يأتيان أمرا محظورا..لا يجوز أن يحصل بينهما..أمرا لا يجوز أن يعلم به أحد.. وخصوصا ماما زبيدة..

خشيت أن يتفطنا إلى وجودها. كان باب غرفتها، المحاذية لغرفة وليد، مفتوحا. دخلت. توارت بجسمها النحيف المرتعش تحت سريرها. أحست بحرارة شديدة. تصبب جسدها عرقا. بعد برهة من الزمن، سمعت وقع خطواتهما. كتمت أنفاسها. اتجها نحو المطبخ. انفرد وقع حذائها. انغلق باب المطبخ. خيم صمت رهيب. لا تدري كم استمر. هل خرجا معا؟

..من قلب السكون عاد صوت وقع أقدام والدها. تقدم الصوت نحو غرفتها. أحست بحرارة تسيل بين فخذيها. توقفت الأقدام أمام غرفتها. تزلزل صدرها. طعنت نبضاته قلب السكون. لم تكن نبضات..بل دوي قنابل..صفارات إنذار..وقع أقدام غيلان الظلام..

غادرت الخطوات أخيرا المنزل عبر باب قاعة الجلوس.

سحبت أعمق نفس في حياتها الصغيرة. بكت. اهتز معها كل جسدها نشيجا..أسى على أحلامها الضائعة.. تأبينا لطفولتها المغتالة..

لما أيقنت من رحيله بارحت ظلمة مخبئها..ذهبت إلى المطبخ..لقد نسيت محفظتها هناك..

منذ ذلك المساء لم يعد الكون في ناظريها عالما من الأحلام الوردية وقصة ناصعة من قصص الأميرة النائمة.

في اليوم الموالي، وجدت ماما زبيدة بنطلونها في سلة الملابس الوسخة. سألتها عن رائحة البول فيه. أجابت بأن الحاجة كانت ملحة فلم تتمالك نفسها. طلبت منها ألا تخبر بابا كامل بالأمر.

ظل سر والدها طي الكتمان. تألمت كثيرا. لم ترتشف طفولتها حتى الثمالة. دخلت عنوة إلى عالم الكهول الغريب. أتقنت رغما عنها حيلهم: الكذب والكتمان.

ماذا تفعل هنا. هل جاءت لتتصالح مع الذاكرة؟ هل يمكن أن تتصالح مع ذكرى أليمة اغتصبت براءتها وعودها لا يزال غضا؟ أكثر من عشرين سنة مرت. بأفراحها وأتراحها. ابتلعت الرمال المتحركة الكثير من الأحداث. ولكن تلك الصور تغلبت على أهوال الزمن. على طريقه الملغم بأشواك النسيان. ظلت هناك. مختبئة مثل جني المصباح. تظهر كلما عنّ للذاكرة أن تلعب لعبة العبث.

كان الليل فرصتها الوحيدة لتبوح. لِدُماها. لدببها ولصورها اللاصقة. تروي لها بصمت الدموع طفولتها الجريحة. كان يعلم أنها علمت. رأت ذلك في نظراته. فهمته أيضا من كلماته حين كان يوصلها إلى المعهد بسيارته. ظل لمدة طويلة يتحين أي مناسبة ليقول لها مثل هذه الخطابات. «تعرفين نجلاء، الإنسان ليس معصوما من الخطأ. كل إنسان يمكن أن يرتكب في حياته بعض الأخطاء. المهم هو أن يفهم زلته وأن يتوب. .».

تسمعه وهي ساهمة دون أن تنبس بحرف. تنزل من السيارة. تحييه بجفاف دون أن تبتسم له أو تلمسه أو تنظر إليه. صارت تتفادى لقاءه والنظر في عينيه وحتى تقبيله. هي التي كانت ترتمي في أحضانه كلما دفع باب المنزل. هل كانت تعاقبه؟ نعم. ولكن ألم تكن أيضا تعاقب نفسها؟

ظلت على ذلك الحال ردحا من الزمن. لم تتفطن ماما زبيدة إلى ما يحدث حولها.

ضاعف بابا كامل محاولاته التقرب منها. أغدق عليها الهدايا. أصبح يخصص لها ولوليد متسعا أكبر من الوقت للتنزه والتسلية. حرص في سفراته أن يكلمها هاتفيا ثم يجلب لها كل ما تطلبه منه. لا تنكر أنها استغلت الموقف. .للطفولة أيضا شهواتها ولذاتها التي لا نملك أمامها سوى الاستسلام. .لكنها كانت تشعر بالخزي أحيانا. .عندما تحس أن بابا كامل يشتري سكوتها.

الجارة فتحية قطعت، بعد مدة قصيرة، علاقتها بماما زبيدة. تعللت بعدم حضورها لحفل نجاح ابنها في امتحان «السيزيام». في أواخر تلك الصائفة، اختفت هي وعائلتها دون أن تترك لها أدنى أثر.

هل كانت ماما زبيدة على علم بما يحدث حولها؟ هل هذا هو سبب بكائها من حين إلى آخر؟ هل غفرت له زلته؟ هل كانت الجارة فتحية غلطته الوحيدة؟

لم تدخل إلى غرفة وليد. توجهت رأسا إلى غرفتها. كل شيء في مكانه. كل الأثاث من الخشب الأصيل المطلي بلون وردي باهت. الخزانة الخشبية. طاولة الدراسة. المنضدة قرب سريرها.

صورة ماما زبيدة بفستان الزفاف الأبيض تتصدر الطاولة. «نجلاء، هل تزوجت دون أن نعلم؟». كان هذا تعليق كل من يزورها ويلمح الصورة، من الصديقات. الشبه بينهما مدهش. كان ذاكر يقول إنها «كلون» أمها.

أو ربما حياتها الأخرى. .تلك التي كان يمكن أو ينبغي أن تعيشها. .

قبل أن تبلغ الحادية عشرة، كانت هناك في نفس المكان صورتهما معا، يوم الزفاف.

ذلك الفراش، شاهد على جهادها من أجل التفوق في الدراسة. هو أيضا شاهد على أن الاستنساخ بينهما لم يتجاوز حدود الجسد.

الشراشف البيضاء الموشاة بزهور وردية، لا تزال تستلقي بدلال على فراشها. جلست عليه. هل ينقل القماش كهرباء الذكرى إلى الجسد؟

كانت مستلقية على فراشها، متكئة على وسادتين، تراجع دروس السنة الثالثة في الكلية. سمعت حفيف خفي ماما زبيدة يدنو من غرفتها. دخلت وهي تحث الخطى ثم أحكمت غلق الباب وراءها. اقتربت منها وجلست على حافة السرير.

– هل سمعت بما حصل لجارتنا خالتي منجية؟

قالت في شبه همس وهي تضع السبابة فوق فمها والإبهام تحت ذقنها. فهمت أن الخبر يمس أمورا أخلاقية متعلقة بالجنس، فتلك حركة أمها المعتادة كلما تعلق الأمر بالجنس. تخفي شفتيها وكأنها لا تريد أن يعلم أحد وحتى مخاطبها بأنها مصدر الحديث.

– خيرا ما الذي حدث؟

– أي خير إنه الشر بنفسه، العار. .المسكينة، اكتشفت أن ابنتها سمية حامل في الشهر الرابع. كانت دائما تتباهى بحسن سلوك ابنتها ولا تترك فتاة من بنات الجيران إلا وتتهمها بسوء الأخلاق.

– هي التي أخبرتك؟

– بالطبع لا، كيف لها أن تخبرني بأمر كهذا؟ التعيسة رافقت سمية إلى مصحة خاصة بقصد الإجهاض، إحدى الممرضات ابنة أخت الجارة سلوى كانت كثيرا ما تزورها وتعرف كل فتيات الجوار، تعرفت عليها من الوهلة الأولى لكنها تظاهرت بالعكس حتى لا تزعجها.

– وهل أجهضت الجنين؟

– بالطبع لا، ألا تعلمين أن القانون التونسي يمنع الإجهاض بمجرد أن يتجاوز الجنين ثلاثة أشهر.

– ما الذي ستفعله إذن؟

– يبدو أنها ستقوم بالإجهاض سرا في عيادة طبيب للنساء. القانون يمنع ذلك طبعا. الله يسترها. أي عار ستحمله تلك الفتاة طيلة حياتها. كيف تفرط في عذريتها قبل الزواج؟ من الذي سيرضى بها بعد ذلك؟ وأي عار تركته لوالديها، كيف ستواجه أمها زميلاتها الأساتذة في المعهد ووالدها «المغبون»، مدير المعهد الوقور، كيف سيحترمه الناس بعدما حصل؟

– ذلك الدكتاتور، هذه نتيجة اضطهاده لها. ألا تذكرين أنها كانت كلما أطلت برأسها من باب المنزل لتتنفس، إلا وتجده يهوى على ظهرها الهزيل بعصا الزيتون. لا أدري كيف يعينون متخلفا مثله مديرا. هذا مآل الكبت والحرمان. بمجرد أن ابتعدت عن والديها لتتم دراستها الجامعية في مدينة سوسة انفجرت القنبلة الموقوتة فيها. والدها هو المسؤول الأول عما جرى.

– كأني بك تدافعين عنها. ليست هي الضحية بل عائلتها، أي عار يلحق بها.

– كفاك حديثا عن العار، لكأننا في عصر الجاهلية.

– وهل تعتقدين أن عصرنا مختلف. يا ابنتي يجب أن تفهمي أن مجتمعنا العربي لا يزال يقيم شرف الفتاة بعذريتها. ثم إنه على حق، فالفتاة المتخلقة لا تمنح جسدها إلا لزوجها. تعلمين أن الرجال، على عكس النساء، لا يحملون في جسدهم دليل عذريتهم ولذا فلا ملام عليهم.

– وهل تشاطرين هذا الرأي؟ هل تقبلين أن تترك للرجل كل الحرية بينما تحاسب المرأة على كل شيء؟ تقبلين أن يقيم شرف العائلة بغشاء رقيق وببضع قطرات؟ إذن فلتعلمي أن العذرية باتت تباع وتشترى في عصرنا، تكفي إبرة وخيط ويد أخصائي ليستعيد الشرف مكانه. هنيئا لجراحينا بلعبة القط والفأر.

إلى متى هذا النفاق الاجتماعي؟ هل بات الرجل يفضل الرياء على الصدق؟ متى سيفهم الرجل التونسي أن العذرية ليست مقياسا لتقييم الفتاة تماما كما أنها ليست مقياسا لتقييم الفتى؟ ثم كيف يجرؤ أن يحلّل لنفسه ما يحرمه على المرأة؟ نحن في زمن يفرض على الرجل أن ينزل من برجه العاجي ويقيم المرأة انطلاقا من ذاته.

– ما عسانا نفعل؟ هذا هو المجتمع العربي ولا يمكننا تغييره.

– بلى نحن كفيلون بتغييره لو أردنا. يكفي أن نبدأ بتغيير أنفسنا. هلا أخبرتني ماذا جنيت أنت من احتفاظك بعذريتك إلى الزواج؟

لا تدري ما الذي دهاها لتطرح مثل ذلك السؤال الأحمق، نسيت في لحظة أن تربية أمها التقليدية تجعل

بعض المواضيع محظورة. .هل عادت صور الخيانة تنهش فكرها؟ . . .

– حسبي أنني أهديت عذريتي إلى من أحب. أجابتها ماما زبيدة بنبرة حزينة لا تخلو من الانفعال.

أسرعت إليها. احتضنتها معتذرة. شعرت بندم شديد. لم تعتد الإساءة إليها. كان دمها الفتي يتلظى بنار الثورة على الأفكار الرجعية. تساءلت وهي تضمها عن رد فعلها، لو علمت أنها منذ أشهر تخلصت من تلك العذرية اللعينة بمحض اختيارها. لم تعتبرها يوما هدية، بل حملا ثقيلا يسجنها ويعيق حركتها. كابوسا رهيبا يشل إرادتها. لم تهدها لمن تحب ولكن لمن اختاره جسدها لكي يخفف عنه ما تحمله من عبء الأنوثة.

هل أذنبت لما رفضت أن تحمل وزر قرون من الاضطهاد؟ هل أجرمت لما طعنت بخنجر التحدي قلب «الماتشيزم»؟ . .ربما. .وقد يكون عقابها أن اللذة تخلفت عن الميعاد على مسرح الجريمة.

دمية كبيرة ذات شعر بني طويل وعينين واسعتين عسليتين. دب أبيض متوسط الحجم يحمل بين يديه قلبا ورديا. كانا هناك في أسفل الخزانة. يصارعان الاختناق تحت أكوام بقية الدمى والدببة القديمة.

«لماذا تحتفظين بها؟»، سؤال يتكرر كلما زارتها إحدى صديقات المعهد. .ثم الجامعة. .ثم العمل. سؤال آخر يتكرر، «لماذا تتركينها في الخزانة؟».

ولكن بأي حق يفتحن الخزانة؟ ولم تلك الأسئلة التي ليس لها بالضرورة جواب؟

خرجت من غرفتها تحمل على صدرها الدمية والدب. قررت بالأمس أن تنتشلهما من ظلام الخزانة. أن تعيد إليهما نور الحياة. أن تتركهما يستنشقان أكسيجين الحرية.

ينبغي أن تعود إلى شقتها قبل أن تمر إلى المجلة. بقي مقالها سجينا في حاسوبها. نسيت أن تنقله على المفتاح الالكتروني أو أن ترسله إلى المجلة عبر الإيمايل. عليها أن تحرره. عليها أن تحرر كل السجناء.

صور تقفز من كل الجدران. قصص تطل من كل الزوايا والأركان. تشير إليها ثم تفر إلى المجهول. أصوات ترتفع ثم تموت. ظلال تتلوى ثم تندثر.

أسرعت الخطى. تريد أن تغادر ذلك المنزل. تسمرت في مكانها في مدخل قاعة الجلوس. أشعة شمس العاشرة المنسابة بسخاء من النافذة ملأت عينيها وأبهرتها. لم تعد ترى شيئا.

أفلت الدب والدمية من حضنها. سقطا أرضا. هناك، أمام النافذة الكبيرة يقف شخص لم تتبين هويته.

شربت الفنجان إلى آخر جرعة. قهوة «لونيفار» لذيذة كعادتها، رغم أنها أضافت إليها ملعقة من الوجع لا من السكر. في النهاية، الإقدام بشجاعة على تجرّع المرارة قد يترك لدينا خلفية طعم الحلاوة. أو اللذة.

المقهى يعج بموظفي الإدارات المجاورة، ينشدون في السائل الأسود الفواح تميمة لطرد النعاس. نغمات

أغنية الست «أروح لمين..» تتحدى ضجيج الحرفاء.
عصافير شارع بورقيبة ترقص ممسكة بأنامل الشمس.
حفيف أوراق الشجر بالشارع الكبير يدعوها إلى الخروج.
تركت على الطاولة بعض القطع النقدية. الآن تعرف إلى
أين ستذهب.

9

ثلج قطني يتساقط، يكسو رصيف «مون مارتر» بياضا. ربما دموع دببة القطب الشمالي البيضاء. هذا ما قال لها بابا كامل وهي لا تتجاوز سن الخامسة.

هل كانت تلك كذبة بيضاء؟

الحرارة مرتفعة في مطعم «لا بوهام» الباريسي المتصدر «ساحة التارتر». جميل أن نشعر بالدفء ولا يفصلنا عن أكوام الثلج سوى جدار بلوري رفيع. جلست خلف الواجهة البلورية. كانت ساهمة تراقب حركة البشر على إيقاع الزمن. لم تهدأ تلك الحركة رغم الثلج والبرد الأسطوري.

فقط رسامو هضبة «مون مارتر» الجالسون، اختفوا مؤقتا مع لوحاتهم التي تمثل في معظمها المعالم الباريسية.

بقي بعض رسامي البورتريه المتجولين، يستوقفون المارة وخصوصا منهم السياح عارضين عليهم استنساخ ملامحهم على الورق الأبيض مقابل بعض الأوراق الملونة. غريب أمر ذلك القلم أو تلك الريشة. تسجن بلامبالاة تقاسيم المارة وملامح المدينة خلف قضبان من الحبر والورق. وكأنها تحنط الزمن وتكفن مومياءه في أهرام المادة.

كانت تنتظر جان بيار وايلودي، زميليها في المجلة الفرنسية Le monde culturel، العالم الثقافي. أنيط

بعهدتهما العناية بها أثناء مدة التربص التي ستمضيها في تلك المجلة الفرنسية. توطدت الصداقة معهما منذ الأيام الأولى للتعارف. عمق ثقافتهما جعلت صحبتهما غاية في التسلية والإثراء.

مر شهران على حلولها بالعاصمة الفرنسية، لم تكد تشعر خلالها بالضجر أو الوحدة. إلا نادرا. كثيرا ما تلتقي بهما بعد العمل في ذلك المطعم أو في مقهى «أوكليرون» المحاذي له .

أخبرها جان بيار أن العديد من كبار الرسامين مروا بساحة التارتر بمن فيهم فان غوغ وبيكاسو. أصبحت أيضا تلتقي بآمال مرتين في الأسبوع على الأقل.

حين علمت آمال بقدومها إلى باريس كادت تقفز من هاتفها الجوال لتحضنها بين ذراعيها. أصرت على استقبالها بمطار أورلي مع صديقها انريكي. استضافتها مدة يومين في شقتها في الدائرة التاسعة من العاصمة الفرنسية. أمضيا ليلة مجنونة في علبة الليل الشهيرة «ذي كوين»، دون حضور انريكي الذي رضخ إلى رغبة صديقته الدكتاتورة. رغم محاولة آمال استبقاءها بشقتها، أصرت على استلام عشها الجديد بعد أن اتفقت معها على تجديد اللقاء.

اكترت لها ايلودي شقة صغيرة، في الدائرة الباريسية الثامنة، قريبا من المجلة ومن «الشانزيليزي». غرفة واحدة في الطابق الرابع تحتوي على كل المرافق الضرورية. بدت لها على صغرها مفتاح العالم.

انفجر وليد ضاحكا، تقدم نحوها والتقط الدمية والدب وقال مازحا:

– ماذا؟ هل أفزعتك؟ أما زلت تخافين من العفاريت؟

كان في السادسة من عمره لما تعمد إطلاق صيحة قبيحة ليفزعها. كانت في المطبخ تملأ مزهريتها الصغيرة ماء. من شدة هلعها، سقطت المزهرية من يديها فتهشمت. بكت طويلا تحسرا على هدية ماما زبيدة. حضنها وليد يومها، عبر لها عن ندمه ووعدها بألا يعيد إفزاعها. لم ينكث عهده سوى ذلك الصباح.

– فعلا، لم أكن أنتظر قدومك إلى المنزل، ماذا تفعل هنا؟ لماذا لم تهاتفني؟

– جئت لألعب معك بالدمية والدب، ولم أهاتفك لأن الإرسال ضعيف جدا هنا. قال مازحا ثم واصل بنبرة حزينة. حسنا كنت أخشى ألا تجيبي.

– يبدو أنك تهذي، كيف لا أجيب أخي العزيز؟

– حسنا لا تتسرعي، يجب أن تعرفي كل شيء قبل أن تصدري حكمك النهائي.

– ألن تكف عن استعمال لغة المحاكم؟ يبدو أن بابا كامل ترك له خير خليفة. قالت مازحة ثم استطردت. لقد فهمت كل شيء وليد. لا يزعجني الأمر. فقط حز في نفسي أنك لم تقاسمني سرك مع أننا اتفقنا على ذلك منذ سنوات. أتذكر ما نحتناه على شجرة الزيتون في الحديقة. مررت بها منذ قليل. خربشاتنا بجذعها لا تزال هناك، لماذا تغيرت وليد ؟

– كنت أنوي إخبارك، لكنني لم أستطع، خذلتني شجاعتي. كنت أتهيأ.. أعد كلماتي.. أنظم جملي.. وحين ألاقيك.. يتبخر كل شيء.. خشيت أن أخسرك..

– كيف تفكر ولو للحظة واحدة أنه يمكنني التخلي عنك. علاقتنا ليست مجرد علاقة شقيق بشقيقته. أنت توأم روحي. أحس بأنك الوحيد في هذا الكون القادر على أن يفهمني. تعلم كم لي من الأصدقاء، مع ذلك لا أحد يمتلك سري مثلك. هل كان علي أن أخبرك بكل هذا؟ كنت أعتقد أن روحينا في حالة انصهار وأن التواصل بيننا ذهني قبل أن يكون شفويا. كنت أشعر أنك تخفي عني أمرا ما. ظننت أن لديك صعوبة في التواصل مع الفتيات. أذكر أنني كنت دائما أتحين الفرص لأعرفك على إحداهن. كنت غالبا ما تتهرب. اعتقدت بأنك خجول. اسمع وليد، ميولاتك الجنسية جزء من حريتك الشخصية ولا أحد يمتلك الحق في التدخل فيها أو تقييمها. ما يعنيني هو أنك شقيقي الصغير المدلل، الذي طالما حملته بين ذراعي، واقتسمت معه الحلوى والشوكولاطة، ولعبت معه الغميضة. أنا أحترم خياراتك مهما كانت.

– أنت تجعلين مهمتي أصعب مما كنت أتوقع. لا أدري إن كان لديك من التسامح ما ييسر عليك مشقة مزيد من الغفران.

– ما خطبك وليد؟ أنت تخيفني بهذه الكلمات.

– أتذكرين حين عرفتني على ذاكر أول مرة؟ قال بصوت متردد، ثم كأنه استجمع كل ما أوتي من شجاعة، واصل قائلا: في ذلك اليوم انتابني شعور غريب. حاولت أن أقاومه لكنني لم أقو على ذلك. نعم نجلاء في ذلك اليوم أغرمت به، لا أدري كيف حدث ذلك وما هو السبب ولكن يبدو أن لنا نفس الميولات وأنه مقدر علينا أن

نحب نفس الأشخاص. .نعم. .لقد أعجبت بكل الفتيان الذين تعرفت عليهم قبل ذاكر لكن الأمر مع ذاكر كان مختلفا، لكأنك أصبتني بعدوى عشقه. كنت تحدثينني عنه ليل نهار. باتت صورته لا تفارق مخيلتي. لا أدري كيف وجدت نفسي في أحد الأيام أطلب منه موعدا ثم أذهب إلى ملاقاته في شقته. أحسن استقبالي، كان يظن أنني سأخبره بأمر يتعلق بك. أعلمته بما يختلج في صدري. لا أدري ماذا كنت أنتظر منه في تلك اللحظة، ربما مجرد تعاطف وربما أكثر من ذلك. صمت قليلا، ثم أكد لي أنه يحترم مشاعري ولكن ليس بيديه حيلة لأنه يحب النساء ويعشقك أنت وينوي الزواج منك.

بعدها بمدة أخبرتني بقراره الرحيل. ظننت أنني السبب في ذلك القرار. اعتقدت أن ذاكر صار يحتقرني وأنه لم يعد قادرا على رؤيتي مجددا وأن هذا ما دفعه إلى السفر. تملكني شعور قاتل بالذنب، تفاقم لما انفصلتما.

بعد ذلك اتصل بي ليسأل عنك. أعلمني بأنني لست السبب في قراره الرحيل وأنه كان ينوي ذلك منذ مدة طويلة ولكن الظروف لم تكن سانحة. طلب مني أن أوصل إليك سلامه، وأكد لي أنه ما يزال يحبك ويرجو الرجوع إليك.

لكنني. .أقنعته بأنه من الأفضل أن يبتعد عنك. لم أحاول أن أصلح ذات البين بينكما. تغلبت أنانيتي على حبي لك. كان من العسير علي أن أرى ذاكر معك مجددا. فضلت أن يبقى بعيدا. لقد حرمتك منه نجلاء. . أتفهمين؟ لو أنني أعلمتك برغبته في العودة إليك لاختلف الأمر. .ربما كنت ستقبلين. .وربما كنتما ستتزوجان

وتنجبان الأطفال. لقد سلبتك سعادتك. سلبتك حقك في الحب والاستقرار. ألا تزالين تعتبرينني شقيقك الصغير المدلل؟ هل يتسنى لك أن تغفري لي جرما لم أغفره لنفسي؟

توقف وليد عن الحديث. خنقته العبرة. ظل ممسكا بالدمية والدب طوال الوقت. ثم وضعهما على الأريكة أين جلست تستوعب كلماته، وانصرف.

كلنا يحمل بين طياته أسرارا لم يبح بها لبشر، بل ويكره أن تتحدث بها أناواته فيما بينها. كل منا له نقطة سوداء مخبأة في دهاليزه، لا يريد أن يعلم بها أحد. نحب المرآة لأجسادنا ونمقتها لأرواحنا.

لا نحب أن يرى الآخر الجانب المظلم فينا، ذلك الجانب الغريزي الحيواني في أحط معانيه. ذلك الجانب الذي يجعلنا نكره، نغار، نشتهي ما ليس لنا، نحقد، نحسد، نرجو الأذى للآخر، وربما نتلذذ بألمه. بأن نكون مصدر ذاك الوجع. حتى وإن كنا نتألم أيضا..

ولكن في النهاية، إذا كان هذا جريمة، وإذا كان لا بد لها من عقاب، أليس أنسب عقاب لنا هو أن نمنح، لا شعوريا، سعادتنا قربانا لذلك الإحساس القاتل بالذنب الذي قد يرافقنا جزءا من العمر أو ربما العمر كله. ينخر أرواحنا وأجسادنا إلى لحظة الفناء؟

صوت «ايديت بياف» يغمر المكان. أغنية «لا فول»، تلك التي تتحدث عن رجل صادفته في الزحام. سرى بينهما تيار العشق عبر النظرات. ولكنه اختفى بين

الحشود التي دفعتهما كلّ في اتجاه آخر. لم تره بعد ذلك اليوم.

ألم تكن «ايديت» تغني عن الحياة. الأيام. القدر.. أو الصدفة. سمه ما شئت. تلك التي تجمعنا أحيانا في لحظات عشق حقيقي، ثم تفرقنا ولم ترتو بعد نفوسنا منه؟

قطع الثلج القطنية ترتل صلوات الحب، قبل أن تنزل الهوينى لتعانق - فوق الثرى- سابقاتها العناق الأبدي. بدا المشهد في الخارج ملائكيا. بياض يكسو المباني والشجيرات والأرصفة وحتى قبعات بعض المترجلين. هل تراه يكسو قلوبهم؟

المطعم حميمي جدا، يوحي لك بدفء المساكن الريفية الفرنسية. كل الجدران والأعمدة مغلفة بالخشب. بالسقف أوتاد خشبية. أما التزويق فهو غاية في البساطة. صور قديمة لبعض الأجداد على ذلك الجدار، بعض الصحون الملونة من السيراميك على الآخر، رفوف عليها أوان بلورية شفافة تحتوي على المملحات. صار مطعمها المفضل في باريس. تشعر فيه بأمان غريب.

حين غادرت مقهى «لونيفار» ذلك اليوم، توجهت رأسا إلى مقر المجلة، لكنها لم تبق هناك سوى بضع دقائق، ما يكفي لتسلم مقالها إلى مصلحة الطبع ولتتسلم من سي شريف بعض المطبوعات لتعمر فراغاتها وتمضي عليها. لم يكن ذاكر هناك. لمحت رؤوف، حيته من بعيد ثم انصرفت. كانت نظرته نحوها تحمل مزيجا من الندم والعتاب.

أنهكتها اعترافات وليد هذا الصباح. بعد ذلك شعرت بسلام غريب يعم أرجاء روحها. أغلقت الباب في وجه الحزن وهي تغلق الباب الحديدي. صوت في داخلها كان يقول «كلنا نخطئ.. المهم أن نعترف بخطئنا ثم نتوب..».

كانت تستعد لصعود الدرجات الأخيرة المؤدية إلى شقتها. رفعت عينيها، كان جالسا هناك على أعلى درجة متكئا على الجدار. قالت له مداعبة:

– ماذا تفعل هناك؟ لم يعد من اللائق بك الجلوس على الدرج.

– ماذا؟ أتريدين أن أنتظرك وأنا واقف على رجل واحدة مثل مالك الحزين؟ المعذرة، أفضل أن تتيبس مؤخرتي. أجابها ثم مد لها يديه، كمن يلتمس المساعدة على الوقوف، بينما كانت تتم صعود بقية الدرجات.

أمسكت يديه وجذبته. نهض. بقيت يداهما متشابكتين. تلامس صدراهما.. ثم شفاههما..

هل كانت تلك قبلة أم كانت تسبح في روحه وترتشف ريق الحياة ناشدة الارتواء؟

هل كان ذلك عناقا أم أنه إبحار على ضفاف النشوة في انتظار إشارة الغوص إلى الأعماق؟

أجبرهما صوت فتح باب إحدى الشقق المجاورة على التوقف.

فتحت باب شقتها ودخلت. تبعها وأقفل الباب. هل دعاها أم دعته؟ حدث كل شيء وكأنه كان منظما، مرسوما على خارطة الصدفة أو على بطاقات دعوة افتراضية.

من بث سر الدعوة؟ حمائم السطوح أم عصافير الشارع الكبير أم نسائم الخريف الأخيرة؟

وجدا جسديهما يتطارحان الحوار على الأريكة المخملية الكبيرة ذات اللون الأحمر العنبي. كان الحوار رقيقا ناعما.. ابتدأ بكلمات قالتها عيناهما ثم اختلط همس الأنامل بلغو الشفاه.. واحتد النقاش.. وكأنهما لم يفترقا لحظة واحدة.. وكأن ما مضى من الزمن كان حلما مزعجا.. كابوسا رهيبا.. أو مجرد فاصل إشهاري رديء.

أين أنت أيها الزمن؟ كيف ستواجه هذه الهزيمة؟ كنت تظن أنك الأقوى بتجاعيدك وشيبك وترهلك وزقوم النسيان. هذا المساء.. من أعلى تلك الأريكة العنبية.. يعلن العشق انتصاره عليك.. ويعلق جثتك الهامدة على أسوار مدينته الخالدة.. لتكون عبرة لغيرك من الطغاة..

لم يركبا قطار الرغبة الجامح ولم تكن لذة الجسد آخر محطة يقصدانها. كان كلاهما يبحث عن نفسه في الآخر، يتحسس عبر جسده طريقه إلى الروح. هل توقف الزمن فعلا بعد أن افترقا؟ هل أن ما يحصل الآن اختزال لطاقة خمس سنوات؟

أمضيا معا ذلك المساء ثم بقية الليل. أغلقا هواتفهما. أغلقا جوارحهما دون العالم الخارجي. لم يتحدثا كثيرا. تركا الثرثرة للأنامل والعيون تنساب منها أسرار الشوق فتجرف في طريقها صمت خمس سنوات.

«ايديت بياف» تغني «لا.. لا شيء.. لا.. لم أندم على شيء.. لا على ما أبلوه معي من خير.. ولا على ما اقترفوا من شر.. كل هذا سيان عندي..».

ما الذي زاد مطعم «لابوهام» دفئا مثيرا؟ هل هي الطاقة المتخفية بين ثنايا أغنية «بياف»؟ أم أنها قطع الخشب المحترقة في المدفئة التقليدية؟ تكاد تسمع أنفاسها.. أنينها..من ألم الاحتراق أم من متعته؟ أم من الوجع والانتشاء؟

خلف الواجهة البلورية للمطعم الباريسي، حدقت في شجيرات أرصفة «مونمارتر». تكاد خضرتها تنتحر تحت رزح البياض المتجمد. أشجار حديقة البلفيدير في تونس العاصمة لا تفكر أبدا في الانتحار، لأن أغصانها الوارفة تعانق أذرع الشمس طوال السنة وترافقها في رقصة «الفالس» الأبدية. حديقة «البلفيدير»..بأشجارها الوارفة وحيواناتها وطيورها المحلقة بشموخ.. كم كان يحلو لها التنزه بين أرجائها، طفلة مع بابا كامل ووليد.

حملتها فرحة النجاح على جوانحها من المعهد إلى منطقة «البلفيدير» أين مكتب كامل منصور للمحاماة. وعدها بإهدائها سفرة إلى أي بلد تختاره عند حصولها على شهادة الباكالوريا. كان متشوقا إلى معرفة نتائج الامتحان. كان يأمل في أن يكون معدلها عاليا حتى تتمكن من دخول كلية العلوم القانونية. أراد أن تحمل عنه المشعل. لم يكن مثلها متحمسا لميدان الصحافة ولم تكن دراسة القانون تستهويها، ولكنها كانت مستعدة لمزاولتها إرضاء له.

قفزت من سيارة الأجرة وأسرعت الخطى إلى الطابق الأول. أرادت أن يكون أول من يعلم بنجاحها وخصوصا بحصولها على ملاحظة قريب من الحسن التي تؤهّلها إلى دخول كلية العلوم القانونية بكل يسر.

ظنت في البداية أن الباب مغلق كالعادة، ولكنه فتح بمجرد أن دفعته. لم تكن فاطمة السكرتيرة بمكتبها. بدا المكتب خاليا من بقية الموظفين والمحامين المتربصين. توجهت رأسا نحو مكتبه ودفعت الباب. كان والدها واقفا أمام الطاولة، يكاد يلتصق بامرأة لا تعرفها، قد تكون إحدى حريفاته. شابة شقراء متوسطة الجمال. ابتعد عنها حين دخلت. بانت عليه علامات الارتباك وهو يدعوها إلى الدخول متصنعا ابتسامة ترحيب، ثم يصافح المرأة و يرافقها إلى الباب الخارجي. نسي أن يسألها عن نتائج الامتحان.

بصمات أحمر الشفاه بقيت عالقة بشفتيه. لم يترك له القدر وقتا لمحو أثره كما لم يترك لها قدرة على طمس الذكرى. خلفت الصدمة في نفسها حفرة لم تردمها رمال النسيان. لم يلبس دويها أسمال كلمات عتاب جوفاء وإنما ثوب قرار مصيري. يومها، قررت أن تدخل كلية الصحافة.

بعض قراراتنا المصيرية وليدة الصدفة، وليدة اللحظة. لا يسعنا حين نتخذها أن نستوعب الأمر. لا يعنينا وقتها مقدار وجاهتها. المهم آنذاك هو أننا أصحاب القرار. أحيانا نصيب المرمى، وأخرى نحيد عنه.

ولكن قد لا نخطئ حين نتخذ قراراتنا في لحظة اندفاع أو حماس أو حتى غضب. أليست تلك اللحظات ثغرة في دهليز روحنا قد يفلت منها أحيانا شبح من أشباح الحقيقة بحثا عن الانعتاق؟

«..أحدثكم عن زمن لا يمكن أن يعرفه من عمرهم أقل من عشرين سنة..». كلمات أغنية «لابوهام»

للمطرب الفرنسي «شارل أزنافور» تطفو على سطح الغوغاء، فتتحدى شنشنة أكواب «الأبيريتيف» وقهقهة الضحكات المرحة في المطعم الباريسي الدافئ. عن أي زمن يتحدث «أزنافور»؟

أتراه يغني عن الزمن الذي كان فيه كل شيء بسيطا.. ساذجا.. حقيقيا.. حين كانت السعادة قادرة على أن تعمر الكيان حتى إذا كان الجيب فارغا.. حين كان الرضا يتحقق بأبسط الأشياء؟.. انقضى ذلك الزمن ولم يترك لعشاقه سوى بقايا حلاوة الماضي وبوادر مرارة الحنين..

السابعة مساء. رن الجرس. فتحت باب شقتها. دخل دون دعوة وأغلق الباب خلفه.

– إذن، هكذا تقررين الرحيل. أكاد أجن. تتمنعين عن السفر معي قبل خمس سنوات والآن تحملين حقائبك وتستسلمين إلى غواية الرحيل. لماذا لم تخبريني؟ هل ما حصل بيننا بالأمس مجرد عبث؟ هل هو مجرد زي من الوهم تعلقينه على مشجب النسيان بمجرد انصرافي؟

كان في حالة انفعال قصوى. كل جسده يتكلم. لكن دون صراخ. لا تدري كيف يجد القدرة على احتواء غضبه وبلورته في شكل كلمات هادئة متزنة رغم الحماس والانفعال.

ظلت صامتة. دعته إلى الجلوس. جلسا على الأريكة العنبية جنبا إلى جنب. أمسك يديها بحنان. أحاط بأصابعه وجهها. لمس وجنتيها برفق.

– لقد وجدتك الآن ولن أسمح لك بأن تبتعدي عني مجددا، لن أترك لك الخيار هذه المرة. سأختطفك

وليكن ما يكون. ألا تدركين بأننا خسرنا الوقت بما فيه الكفاية؟

– لم يكن ما حدث بيننا وهما. أنا أيضا وجدتك، ولكنني لم أجد نفسي بعد. أريد أن أبتعد قليلا، أن أبحث عنها. أشعر بلخبطة وضياع. أظنني على الطريق لكنني لم أمسك بعد بالطرف الآخر للخيط. حاول أن تفهمني ولا تجعل الأمر أصعب مما هو عليه.

يمضي الكثير منا جزءا من حياته وهو يبحث عن شيء، يجري خلف ظل هدف، وحين يجده، يتفطن بعد نشوة الانتصار إلى أنه يخفي خلفه هدفا آخر لم يدركه بعد وأن عليه أن يجري مجددا ليبحث عنه. ربما هي لعنة «سيزيف» تصيب بعض البشر، وربما هي بركة السماء تمنحنا هدفا لنعيش من أجله.

نوفمبر يلفظ أنفاسه الأخيرة. سحب رمادية تكفن نور الشمس. قاعات الانتظار تعج بالمسافرين. كل إلى وجهته. كل إلى مصيره. يجرون وراءهم حقائب مليئة بالصور والأماكن والأحداث. حقائب مليئة بحيواتهم.

أصر وليد على أن يجذب حقيبتها الوحيدة ذات العجلات. رافقها في سيارته إلى مطار تونس قرطاج. أخبرها في الطريق بأن أكرم يتدرب على فن التمليس ونحت الطين.

– أنا من شجعه على ذلك. كان في البداية متخوفا، ولكن ما إن لامست يداه كتلة الطين حتى حصلت المعجزة. صدقيني كأنه نزل من بطن أمه وبين يديه قطعة طين. تفطنت منذ تعرفت إليه إلى رهافة حسه وإلى تلك الطاقة الخارقة على الإبداع التي تملكها يداه. أعاد

إليه الطين حبه للحياة. لقد اتفقنا على أن نمضي معا أسبوعا كاملا في مدينة طبرقة. أحد الأصدقاء أعارنا منزله المطل مباشرة على البحر، تحتوي قاعة منه على كل لوازم وأدوات النحت والرسم أيضا. قررنا أن ننجز بعض الأعمال الفنية ثم ننظم ثلاثتنا معرضا جماعيا. ما رأيك نجلاء، هل نحن قادرون على كسب الرهان؟

– أنا واثقة من ذلك، إنها فكرة رائعة، أعتقد أن هذا النشاط الجديد سيشغل أكرم ويبعده عن عزلته. سأنتظر قدومك إلى باريس يجب أن تقضي معي عطلة رأس السنة.

– يبدو أنني لن أجد عرضا أكثر إغراء من هذا. أكرم سيسافر في رأس السنة مع والدته إلى ألمانيا لعلاج عينيه. أجمع الأطباء في تونس على أن فقدانه البصر نهائي. أما والدته فما زالت مصرّة على أن تجرب كل طرق العلاج. أخبرتها شقيقتها المقيمة هناك أن علاجا جديدا بأشعة الليزر قد يعطي مفعولا طيبا. أنا لست متحمسا لسفره ولهذا العلاج المجهول، فالنتيجة السلبية ستؤثر حتما على توازنه النفسي وقد تسبب له انهيارا عصبيا آخر.

لم يتحدث وليد طوال الوقت سوى عن أكرم وكأن عقدة لسانه قد انحلت. استعاد ما عهدته فيه من حماس وانطلاق وحب للحياة. لم تكن لتستوعب في تلك الفترة القصيرة كنه علاقته بأكرم. ليس من السهل أن تفهم سر ذلك العشق الذي يجمع شخصين من نفس الجنس والذي يسمى في مجتمعنا وحتى في المجتمعات الغربية «شذوذا». كان الأهم لديها أن يكون شقيقها سعيدا.

وصلها صوت سهام في الهاتف مفعما بالفرح والحماس الذي عودتها عليه.

– أيتها الماكرة، لماذا لم تعلميني بموعد سفرك، كنت أنوي مرافقتك إلى المطار. الآن فقط علمت من ذاكر أنك هناك.

– لا تقلقي بشأني، وليد إلى جانبي، ثم إنني أمقت لحظات الوداع. أخبريني عن ياسمين وعنك.

– ياسمين بخير، طلبت مني كالعادة أن أرسل قبلة منها إلى «تاتا نجولة». بالنسبة إلي، مازال الحصار ومنع التجول متواصلا مع بعض الغارات من حين إلى آخر.

– ألا تكفين عن العبث. قالت ضاحكة.

–لولاه عزيزتي نجلاء لكنت في عداد المفقودين في ماسورة الضياع والعته. لعل الوقت غير مناسب ولكن يجب أن تعلمي أن الزواج رابطة غريبة. فمهما حصل من الطرف الآخر، يبقى الانفصال قرارا يعسر اتخاذه. لا أفهم إلى الآن ما الذي يمنعني من مواجهته بتلك الكلمة: الطلاق. لا أفهم أيضا لماذا لا ينطق بها، مع أنه يتفوه يوميا تجاهي بما هو أقذر منها. حسنا، لا تقلقي بشأني فمن ولد في كيس قمامة لا تزعجه الروائح الكريهة. خبر عاجل أنقله إليك قبل أن يسبقني أحدهم، قدّم رؤوف استقالته إلى إدارة المجلة مساء أمس. حاول ذاكر ثنيه عن قراره دون جدوى. الآن يكفي ثرثرة، يكاد رصيدي في الهاتف ينتهي. أتمنى لك سفرة طيبة وإياك أن تفكري في البقاء هناك نهائيا.

– اطمئني، أنا عاجزة عن ذلك. قبلاتي الحارة إلى ياسمين.

كادت تغلق الخط حين سمعت سهام تضيف:

- لم تسأليني عن ذاكر؟ هل انفصلتما مجددا؟

- وهل نحن مرتبطان حتى يجوز الحديث عن الانفصال؟

- حسنا، أردت فقط إعلامك بأنني لمحت عليه علامات التوتر. ارتبك لما سألته عنك رغم أنه حاول تصنع اللامبالاة.

اشتمت رائحة التشفي في تلميح سهام إلى استقالة رؤوف. أما هي فقد شعرت بانقباض في صدرها. مهما حدث من أمر يبقى رؤوف أحد أصدقائها ولم تكن ترغب مطلقا في أن يصل به الأمر إلى الاستقالة. شيء ما تهشم في علاقتها به ولكنها لن تتخلى عن صداقته. شيء ما تهشم أيضا في علاقتها بنذير، لكنهما اتفقا في آخر مكالمة لهما على أن يظلا صديقين.

هل تكسر شيء في علاقتها بسهام؟ لا تدري.. تشعر بالثورة على نفسها.. هي التي تؤمن بحرية الآخر وتحترم الاختلاف، لماذا تجد نفسها أحيانا، تقيم تصرفات الآخرين.

قالت لها سهام ذات يوم: «يتزوج الناس بحثا عن السعادة ولكن بمجرد أن يجمعهما الرباط المقدس، تجدهم يبحثون عنها خارجه». أليس هذا في النهاية صحيحا؟

هل بحثت عن السعادة عندما تزوجت من منير؟

لا تدري. ليست الأمور بهذه البساطة. تفطنت منذ زمن إلى أن السعادة ليست قطعة من الأثاث يمكن أن

نحتفظ بها إلى الأبد في أحد أركان المنزل ولا قطعة مصوغ نتزين بها متى نشاء ثم نواريها بحذر في خزنة فولاذية حتى لا يسرقها لص التعاسة. إنها زائر مزاجي، يطرق الباب متى يشاء، قد نتوقع قدومه وقد يكون حلوله مفاجئا، قد يحلو له زيارتنا من حين إلى آخر وقد نصادفه مرة واحدة في حياتنا الفانية، ثم يختفي إلى الأبد.

لكن في النهاية.. السعادة معنى نسبي وليست مفهوما مطلقا.. معنى يختلف من بشر إلى آخر..تماما مثل اختلاف بصمات الإبهام. لكل سعادته كما لكل حياته. ألا يصبح المرء حينئذ قادرا بمرور الزمن على خلق السعادة..سعادة على مقاسه..إذا أراد ذلك؟..

بدأ الحرفاء يتوافدون على المطعم وبدأت روائح الأطباق الفرنسية تدغدغ الأنوف وكل الحواس. ليست أذكى من رائحة طبخ ماما زبيدة التي كانت تجر الداخل إلى البيت من أنفه إلى أن يدرك المطبخ، هناك يلتحم الشم بالذوق في قصة عشق عنيفة تنتهي بامتلاء البطن.. بما لذ وطاب من تصانيف تونسية.

كان بابا كامل لا ينفك يشبعها إطراء وهو يشبع جوعه من أطباقها اللذيذة. كانت لا تمل من إطراءه، تسمعه وفي عينيها سعادة أسطورية. بقيت تحبه بعمق..رغم كل شيء..

هل تراهما معا هناك..في المجهول..أم ترى الموت يفرق بينهما كما يفرق بين الأحياء والأموات؟

ما الذي تفعله هنا..في هذا البلد الغريب؟ هل جاءت تطلب حق اللجوء العاطفي هربا من بطش الذكرى؟ لكن الذكرى ليست رهينة المكان والزمان، إنها تلاحقنا أنى

ذهبنا، تعشش في خلايانا، تقتات من دمائنا، تتنقل في شراييننا، قد تقتلنا ولا تموت، وليس للوقت عليها من سلطان فهي قاهرة الزمن.

يتمنى المرء أحيانا أن يبرمج ذاكرته كما تبرمج ذاكرة الحاسوب. يتمنى أن يكون قادرا على الإمساك بها أو التحكم فيها أو إخفائها في أحد أدراج فكره ثم إخراجها متى شاء أو ترك الدرج مغلقا إلى الأبد. ولكن هيهات، فهي التي تملك كل المفاتيح، وقد تجعلنا سجناءها إلى آخر لحظة من العمر.

أخبرته بأنها ترحل بحثا عن ذاتها، ولكن هل يحتاج المرء إلى الرحيل كي يجد نفسه؟

لماذا لم تشعر بالسعادة لما عرض عليها ذاكر الزواج قبل خمس سنوات؟ ولماذا لم تسافر معه رغم عشقها له؟ أسئلة ظلت تحيرها إلى اليوم..

هل جاءت إلى باريس فرارا من عرض زواج قد يتجدد؟ وإن كان الجواب بنعم، فلماذا الهرب؟ أسئلة جديدة تخشى الإجابة عنها..

رنات جرس «البازيليك دي ساكري كور» تتدحرج من قمة «مونمارتر» لتستقر على سفح أذنيها. هل كانت الرنات آتية فعلا من تلك الكنيسة أم من ساعة الأبنوس الحائطية في شقتها أم من ركن من أركان ذاتها؟

بالأمس أمضت، غير بعيد عن كنيسة «الساكري كور»، سهرة عشاء صاخبة مع جان بيار وإيلودي وبعض أصدقائهما في «المولان روج».. هناك يمتزج الرقص بالطعام والغناء واستعراض الأزياء المصنوعة من ريش النعام.. أزياء صممت لتكشف أجساد الراقصات الفاتنات

أكثر مما تخفيها. .هناك. .تتعانق متعة النظر بلذة الذوق ونشوة الاستماع.

حين بلغت السهرة أوجها، سمعت تلك الرنات. لم تكن تعلم مصدرها. لكنها كانت تدرك أنها الوحيدة في ذلك الحشد المحتفل التي تسمع رجع صداها.

تواصل تدفق الجائعين على مطعم «لابوهام». طغت أحاديث الحرفاء وضحكاتهم على نغمات الموسيقى الهادئة. مازال الثلج يسلب أعشاش الطيور، على أذرع شجيرات «مونمارتر» العارية. عصافير شارع بورقيبة صامدة أمام كل عدوان. .تذود عن حمى أوكارها وتطرد المعتدين. .

ما الذي دهاها حتى تسبقهما بنصف ساعة إلى هناك؟ خيّل إليها أنها سمعت قهقهات إيلودي وجان بيار. . ولكن لماذا يندس صوت ذاكر في عمق كلّ الضجيج؟